جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم التاريخ

المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي

(٦٤٨هـ - ٩٢٢هـ) (١٢٥٠م - ١٥١٦م)

اعداد

منال أحمد ابراهيم أبو زيتون

إشراف

الإستاذ الدكتور محمد عيسى صالحيه

١٩٩٨م

المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي

(٦٤٨هـ - ٩٢٢هـ) (١٢٥٠م - ١٥١٦م)

إعداد الطالبة

منال أحمد ابرهيم أبو زيتون

بكالوريوس تاريخ ١٩٩٣، جامعة اليرموك

قدمت هذه الرسالة إستكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي - جامعة اليرموك ١٩٩٨

لجنة المناقشة

الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية........................مشرفاً ورئيساً

الدكتور نعمــــــان جبران..عضواً

الدكتور سليمان خرابشة..عضواً

١٩٩٨

الإهداء

إلى والدي الحبيب ، وأمي الغالية اللذان تعهداني منذ نعومة أظفاري. فخراً وإعتزازاً ....

إلى زوجي العزيز – شكراً وعرفاناً ....

إلى إخواني الأحبة ، منيب ، معتز ، مهند ، محمد ، معتصم ....

إلى شقيقاتي الغاليات راويه وشفاء ....

شكر وتقدير

وبعد،

لا يسعني بعد أن أنهيت إعداد هذه الرسالة، إلا أن أتوجه بعظيم الشكر ووافر الإمتنان، إلى إستاذي الدكتور محمد عيسى صالحيه. والذي تعهدني في مرحلة دراستي الجامعيه وتفضل بقبول الاشراف عليَّ، ومنحني من علمه ووقته الكثير، وساعدني في إختيار موضوع البحث، وبذل جهداً طيباً لإنارة الطريق لي، وفتح مكتبته لأنهل منها واستعير منها المصادر الكثيره، وأكسبني منهجه في البحث والتحليل والتقصي.

فادعوا الله تعالى أن يمدّ في عمره ويمتعه بموفور الصحة والعافية، وأن يحفظه ذخراً وسنداً للعلم والعلماء الذي يكبرون به ومعه.

كما أتوجه بالشكر إلى أساتذتي في قسم التاريخ، في جامعة اليرموك واللذين درستُ على يديهم في مرحلتي البكالوريوس والماجستير.

ولا يسعنى الا أن أتقدم بجزيل الشكر إلى أساتذتي أعضاء لجنة المناقشة، والذين تفضلوا بقبول مناقشتي في هذه الرسالة، أدامهم الله جميعا ومتعهم بموفور الصحة والعافية.

فهرس المحتويات

المقدمة

تناولت معظم الدراسات التاريخية الحديثة للعصر المملوكي، النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية، والحضارية، أما النواحي الاجتماعية فقد كان البحث فيها قليلاً، لصعوبة الخوض في موضوعاتها من جهة، وقلة المادة التاريخية من جهة أخرى فجاءت تلك المعلومات قليلة متناثرة في بطون الكتب التاريخية.

ومن هنا كان على الباحث أن يتجشم الكثير من مشاق البحث في الكتابه عن مثل هذه الموضوعات، ولكن ورغم ذلك كان هناك مقداراً من العزم للخوض في مثل هذه الموضوعات، فأخترت عنواناً لبحثي عن المجاعات في العصر المملوكي.

وقد واجهت في بداية البحث عدَّة مصاعب، كان أولها قلة المراجع الحديثة التي تناولت مثل هذه المواضيع، باستثناء كتاب للدكتور أحمد السيد صاوي، وهو عبارة عن أطروحةٍ لنيل درجة الدكتوراه، تحدث فيها عن مجاعات مصر الفاطمية، وبالرغم من ذلك فقد تناولها من ناحية أثرية، معتمداً على المخلفات الأثرية الى جانب المعلومات التاريخية، وقد أفدت من هذا الكتاب في أخذ لمحة عن كيفية ترتيب الخطة الدراسية. وغير هذا الكتاب لم يوجد، اللهمَّ الا إشارات متفرقة في بعض المراجع الحديثة.

ومن الصعوبات الأخرى التي واجهت الباحثة، هي تكرار الحوادث التاريخية عند معظم المؤرخين، وتداخل الأسباب والنتائج مع بعضها البعض، مع صعوبة الفصل فيما بينها في بعض الأحيان، واهمال كثيراً من الروايات والتي تتنافي مع المنطق.

وقد حاولت الباحثة في هذه الدراسة إلقاء الضوء على المجاعات التي أصابت مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، مبينة الأسباب والنتائج التي ترتبت على هذه الأحداث الطبيعية التي أصابت المنطقة.

وقد قسمت الموضوع إلى مقدمة، وثلاث فصول وخاتمة

خصصت **الفصل الأول** لإعطاء صورة عن المجاعات التي أصابت المنطقة مُستعرضةً، تواريخ حدوثها، والمظاهر المصاحبه لها، ومن ثم تطرقت إلى الأسباب الطبيعية التي كانت وراء حدوثها، ومن أهمها مشكلة المياه والرَّي، والمتمثلة في

النيل، حيث كان يُعتبر زيادة مستوى فيضان مياه النيل أو نقصانها سبباً في حدوث المجاعة، فعندما كان الفيضان يتجاوز الحدّ، يؤدي ذلك الى غرق المزروعات وخرابها، أما إذا تناقص منسوب الفيضان، فإن ذلك يؤدي الى جفاف المزروعات، والى جانب النيل كانت الأمطار من حيث ندرتها أو قلتها سبباً في حدوث المجاعة وكانت الطواعين من الأسباب التي تؤدي الى حدوث المجاعة، فكان المرض يقضي على أعداد كثيرة من السكان، مما يؤدي بالتالي إلى قلة العاملين في المجال الزراعي وبالتالي ندرة المواد الغذائية.

كما تعرضت الى الزلازل التي أصابت المنطقة، والتي كانت تؤدي إلى خراب المدن والقرى والزروع، وموت الناس، والنفقات الكبيرة التي تتكبدها الدولة، لإعادة إعمار ما تهدم من مباني ومدارس وغيرها. كما بينت أثر القوارض والآفات الزراعية، من دودة وجراد في مهاجمة المزروعات واكلها للغلال، مما يؤدي الى ندرة وجودها، وبالتالي قلة عرضها في الأسواق، وإرتفاع أسعارها في كثير من الأحيان.

ولم تكن الأسباب الطبيعية هي السبب الرئيسي الوحيد في ظهور هذه المشكلة، فقد لعبت العوامل البشرية دوراً مهماً في حدوثها فقد كان، لفساد العربان وتمردهم الدائم على السلطة المركزية في الدولة المملوكية أثرٌ كبير في حدوث المجاعة، من حيث الخراب والدمار الذي كانوا يقومون به، والحروب التي تدور رحاها بينهم وبين المماليك، كما كان لثورات المماليك أنفسهم وتزايد نفوذهم، أثرٌ أخر في حدوث المجاعة، فقد تكبدت الدولة نفقات كثيرة في اخراج التجاريد المختلفة للقضاء على الثورات والفتن التي كانوا يقومون بها.

ومن العوامل البشرية الأخرى، الأخطار الخارجية، والمتمثلة في خطر الفرنج على الشام ومصر، والاسكندرية، وغزو تمرلنك لبلاد الشام وقتله للسكان، وهروبهم من الشام الى مصر، وإستيلائه على الأموال وإحراقه للمزروعات، والاستيلاء على المراكب المحملة بالغلال والبضاعة.

كما لعب فساد نظام الحسبة والمحتسب دوراً واضحاً في تدهور الحياة الاقتصادية في الدولة المملوكية، من حيث تواطو المحتسب مع كبار رجال الدولة، ووصول من ليس أهلاً للمنصب إليه والرشوة، ودفع المال، لشراء المنصب والبراطيل مما يؤدي الى إختفاء البضائع، وارتفاع الأسعار، وعدم قدرة العامة الحصول على المواد الغذائية.

وفي **الفصل الثاني**، تحدثت عن الآثار الاجتماعية للمجاعات، فقد تعرضت الى أثر المجاعة على القيم والمظاهر الاجتماعية، فقد اختل نتيجة للأزمات الإقتصادية المتتابعة، الكثير من القيم الاجتماعية، حيث إنتشرت عادة أكل لحوم البشر في المجاعة، وقيام الأباء ببيع أبنائهم مما يترتب عليه زيادة أعداد العبيد على الأحرار، كما سادت عادة الاحتكار على البضائع من أجل رفع أسعارها، وأغتنى نتيجة لهذا الأمر، الكثير من الناس، كما أدت هذه الأحداث الى إنخفاض مراتب الناس، وتساوى الفقير والغني في هذه الأحداث، ومن القيم التي إحتلت أيضاً هو كثرة السؤال في الطرقات، والغش الذي استشرى وخاصة في الخبز وكيف اصبح الخبز سيء الصنعة.

أما من الناحية الديمغرافية، فقد أثرت هذه الأحداث على أعداد السكان في البلاد فماتت أعداد كثيرة من الفلاحين، مما أدى إلى بوار الأراضي الزراعية وهجرة الفلاحين لأراضيهم، وقلت أعداد القرى في البلاد، وهاجرت اعداد كبيرة من سكان بلاد الشام والقدس الى مصر والقاهرة، وخلت العديد من القرى من ساكنيها، وتعرضت الأرضي المقدسة الى قلة عدد سكانها.

كما تعرضت الى المظاهر الاجتماعية، وكيف عزف الناس عن الأحتفالات في أيام الأعياد والجمع، فقد إختفت كثير من المظاهر الاجتماعية، مثل الاحتفالات بكسر الخليج، والاحتفال بعيدي الفطر والأضحى، وكيف امتنع السلطان والأمراء عن ذبح الأضاحي وتوزيعها على الناس، وقلت أعداد الحجاج بسبب الغلاء والوباء، كما اشرت الى الأوضاع الثقافية وكيف تأثرت في المجاعات فبعدما كان الاهتمام بالعلم والعلماء عظيماً، ولكن وبسبب المجاعات التي ضربت البلاد، فقد أصابهم سوء في الأحوال، واتضعت أحوالهم، وقلت رواتبهم وحُلت كثير من الأوقاف.

كما تحدثت في الفصل الثاني، عن أثر المجاعات على العمارة والفنون فقد إستعرضت العديد من إنجازات المماليك في فترات الرخاء، والزخارف العظيمة التي كانت على المحاريب والمساجد، وكيفية بناء المسجد والمدرسة وقارنت بينها وبين المباني التي أُنشئت وقت المجاعة، فعلى الرغم من قلة الأثار العمرانية التي كانت في زمن المجاعة، الا انني إستطعت أن أجد بعض الاشارات الى بعض الاختلافات التي وجُدت، وخاصة في صحون المساجد والمتمثلة في صغر حجم البناء وقلة الزخارف الموجودة، واعتمدت في هذا الموضوع على بعض المراجع الحديثة، مثل مساجد مصر واولياؤها الصالحون لسعاد ماهر.

وفي **الفصل الثالث**، فقد بينت أثر المجاعات على السكة المملوكية، وعمليات الغش والتزييف التي تعرضت لها العُملة، وحلول الفضة محل الذهب واستخدام الذهب في صياغة الحُليّ، والأواني الذهبية والمنزلية وكيف أدت المجاعات الى حدوث تضخم مالي، أدى الى إنخفاض القيمة الشرائية للدرهم، وكيف تعامل أولي الأمر مع هذا الموضوع وقد أدى ضعف القدرة المالية للبلاد، أن عادت المنطقة الى عملية المقايضة للحصول على البضائع التي يريدون.

كما أشرت أيضاً الى أثر المجاعات على الحيوان، فانعدمت الكثير من الحيوانات، بسبب قلة الأعلاف، والأمراض التي تصيبها، فامتنع الناس عن شراء لحوم الحيوانات، بسبب الأمراض التي تُصيبها، وكان لنفوق الحيوانات، أثر في إرتفاع أسعارها.

وللتغلب على المصاعب التي أصابت البلاد، تعرضت الى الإجراءات التي لجاء إليها سلاطين المماليك في محاولة التصدي ووضع الحلول لمثل هذه المشاكل، مثل قيامهم بتوزيع الأموال على الناس، ومنع الاحتكار وفتح الشون والاهراء السلطانية، ومنع التجار من رفع الأسعار عن طريق تحديد أسعار المواد الغذائية، كما لجاؤوا الى دعوة الناس الى الصيام والاستسقاء، كما كانت الكتب السلطانية تخرج الى النواحي، بضرورة توفير الغلال للسكان ومنع البيع الا للسلطان أو اعوانه.

وقد بذلتُ جهداً أرجو أن يكون كافياً لاخراج مثل هذه الدراسة، التي أتمنى أن تنال رضى اساتذتي المناقشين والأخوة القراء. ولا أدعي بأنني غطيت واوفيت الموضوع حقه من جميع الجوانب بحثاً وكتابه، فلا بدّ أن تكون هنالك معلومات لم أتمكن من الحصول عليها، لم أبلغ الكمال أبداً، فالكمال لله وحده فأرجو قبول إعتذاري عن كل تقصير.

الفصل الأول

المجاعات التي ضربت مصر والشام

أولاً: العوامل الطبيعة للمجاعات :

أ- مشكلة المياه والرّي

ب- القوارض والآفات الزراعية

جـ- الطواعين

د- الزلازل

ثانياً : العوامل البشرية للمجاعات

أ- فساد العربان

ب- ثورات المماليك وتزايد نفوذهم

جـ- الحروب والأخطار الخارجية

د- فساد الحسبه

هـ- ظاهرة الطرح والرّمي

المجاعات التي ضربت مصر وبلاد الشام

تعرضت مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي إلى العديد من المجاعات التي ضربت المنطقة وأثرت في بنيانها الديمغرافي والأجتماعي، ولقد نتجت هذه المجاعات عن عوامل طبيعية وبشرية، وشهد العصر المملوكي منذ بداياته مجاعات عديدة وشديدة أثرت فيه تأثيراً عميقاً في جميع مناحي الحياة.

وقد بدأت المجاعات تضرب المنطقة منذ عام (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م) وكانت تصيب مصر والشام معاً، ويمكن أن نعزو السبب في ذلك إلى الأرتباط المباشر بين الإقليمين، فحدوث مجاعة في أحدهما يؤدي إلى امتدادها إلى الأقليم الآخر، فقد شهد العصر المملوكي حدوث مجاعة في العام المذكور، في كل من مصر ودمشق وحلب، ارتفعت خلالها الأسعار وأدى إلى غلاء شامل في جميع البضائع، وقد رافق هذه المجاعة الأمراض [1] التي أخذت تفتك بالناس.

وبسبب انعدام الاستقرار السياسي في دمشق سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) أصابت البلاد مجاعة وغلاء شديدان، لكثرة الدول التي تعاقبت على حكمها من ملوك ونواب وقضاه، فقد حكمها الناصر يوسف بن عبد العزيز، ثم مملكة التتار ثم مملكة المظفر قطز، ثم في مملكة الظاهر بيبرس ثم استولى عليها علم الدين سنجر الحلبي، وكانت هذه الأحداث في سنة واحدة. [2]

---

(١) المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢م) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، سعيد عاشور، ط١، ١٩٥٨، القاهرة لجنة التأليف والنشر -جـ ١ قسم ٢، ص ٤٠٩، ٤١٠، وط دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٣، وسيشار اليه لاحقاً بالمقريزي، السلوك.

(٢) الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢م) تحفة ذوي الالباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تحقيق احسان بن سعيد خلوصي وزهير حميدان، منشورات وزارة الثقافة- دمشق، ١٩٩٢، ص ١٦٣/١٦٤، وسيشار اليه لاحقاً بالصفدي، تحفه الالباب.

بالإضافة إلى قيام الفرنج باستحداث دراهم جديدة، عُرفت باليافيه وكانت مغشوشة، حيث كان في كل مئةٍ منها، خمسة عشر درهماً فضة والباقي نحاس، حيث كثرت بأيدي الناس، وعندما تبادر إلى اسماع العامة بأنها ستلغى، ازدادت عملية شراء السلع من السوق، وذلك حتى يتخلص من يملكها منها قبل الالغاء، مما أدى إلى تزايد في الأسعار بسبب الاقبال الشديد على عملية الشراء.[1]

وما أن خرج التتار من بلاد الشام حتى حدثت مجاعة أخرى في سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م)، حيث قلت الأقوات، وإشتدت الأحوال، وزادت سوءاً، وبقيت على تلك الحال، حتى أُرسلت المساعدات من مصر، وفُرقت في الشام.[2] وكانت المجاعة في مصر ايضاً في تلك السنة، فسارع الظاهر بيبرس وأمر بكتابة أسماء الفقراء، من أجل توزيع الطعام عليهم، وقام بأخذ جماعة منهم، قائلاً «والله لو كانت عندي غلةُ تكفي هذا العالم لفرقتها» ووزع جماعات أخرى منهم على النواب والأمراء.[3]

وظلت المجاعات تضرب المنطقة ففي حوادث سنة (٦٦٠ هـ / ١٢٦١م) حصل غلاء شديد في الشام في جميع اصناف البضائع والغلال، «حيث اكل الناس بعضهم بعضاً ومات أُناس كثيرون من جراء الجوع».[4]

وحدث غلاءً أخر في مصر في سنة (٦٦١ هـ/ ١٢٦٢م) بسبب نقص النيل وانعدمت الاقوات وحدث الجوع بين الناس، واستمر هذا الغلاء إلى السنة التي تليها، وكان عظيماً، مما حدا بالسلطان اللجوء إلى التسعير، وباع الظاهر من

---

(١) ابو شامة شهاب الدين المقدسي ت (٦٦٥ هـ/١٢٦٦م) الذيل علي الروضتين، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، دار الجيل، بيروت، جـ ١، ص ٢١١، وسيشار اليه لاحقاً بـ أبي شامة، الذيل على الروضتين، اليونيني، خطيب الدين ابي الفتح موسى بن محمد بن احمد اليوسفي البعلبكي (ت ٧٢٦ هـ/١٣٢٦م) ذيل مرآة الزمان، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، الهند ١٩٥٤م، جـ ١، ص ٣٧٦، وسيشار إليه لاحقا بـ اليونيني ذيل المرآه.

(٢) اليونيني، ذيل المرآه، جـ ١، ص ٤٣٦.

(٣) ابن عبد الظاهر، محي الدين (٦٩٢ هـ/ ١٢٩٢م) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر - الرياض،. ط١،،١٩٧٦،، جـ ١، ص ١٨٩.

(٤) اليونيني، ذيل المراة، جـ١، ص ٤٩٨، الكتبي، محمد ابن أحمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) عيون التواريخ، تحقيق، فيصل السامر، ونبيلة دواد، ط. دارالرشي،١٩٨٠، جـ ٢٠، ص ٢٦٧. المقريزي، السلوك ،جـ١ قسم ٢، ص ٤٦٦.

الأهـــراء،[*] خمسمائة أردب [*] من القمح كل يوم على الفقراء والضعفاء، [1] وكان هذا الإجراء قد خفف نوعاً ما، من حدة الجوع.

ولكن الأمور تفاقمت في سنة (٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤م) في ولاية العادل كتبغا «فكانت أيامه شر أيام، لما فيها من قصور مدّ النيل، وغلاء الأسعار وكثرة الوباء في الناس». [2]

وكان القحط في جميع الممالك في المشرق والمغرب والحجاز، وذلك أن المطر لم يقع في تلك السنة في بلاد برقه، فقحطت بلادهم، وجفت اعين الماء فيها وعمّ أهلها الجوع لعدم القوت، فخرج أهلها متوجهين إلى مصر، هرباً من الجوع فهلك جُلهمَ جوعاً وعطشاً، ووصل القليل منهم في جهدٍ وقلة.

أما في بلاد الشام، فقد تأخر المطر فيها، وفات أوان الزرع، وتأخر سقوط الأمطار في بيت المقدس والساحل، ولم تُزرع فيها الأراضي وجفت الآبار والعيون التي في فلسطين والقدس،[3] وفي هذه المجاعة أُكلت من شدة الجوع الميتات والكلاب والقطط، والحمير، وأكل الناس بعضهم لحم بعض.[4] أما مصر فقد كانت تعاني

(*) الاهراء: مخازن يحمل اليها ما يرد من الغلات السلطانية، من منفلوط والحبس الجيوشي، ابن مماتي، الاسعد، (ت ٦٠٦ هـ/١٢٠٩) قوانين الدواوين تحقيق، عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر، ١٩٤٣م، ص ٣٥٠، وسيشار اليه لاحقاً بابن مماتي، قوانين الدواوين.

(*) الاردب، مكيال مصري للحنطة ويساوي ٢٤ صاعاً، فالترهانز المكاييل والاوزان، وما يعادلها في النظام المتري ترجمة كامل العسلي، الجامعة الأردنية عمان ١٩٧٠، ص ٥٨-٥٩. وسيشار إليه لاحقاً بـ فالترهنتس المكاييل والاوزان.

(١) ابن اياس، محمد بن احمد (ت ٩٣٠ هـ/١٥٢٣م) بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، جـ١، ص ١٩٢.

(٢) المنصوري، بيبرس، نائب السلطنة (ت ٧٢٥ هـ/١٣٢٥م) التحفة الملوكية في الدولة التركية، تاريخ دولة المماليك البحرية من (٦٤٨ هـ/ ٧١١ هـ)، قدم له عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية ط١، ١٩٨٧، ص١٤٤.

(٣) المقريزي، اغاثة الامة بكشف الغمة، مؤسسة ناصر للثقافة، د. ط، د.ت، ص ٦٨، وسيشار اليه لاحقاً بالمقريزي، اغاثة الامة.

(٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الاثار، «يختص ذلك باخبار اقليم مصر والنيل، وذكر القاهرة، وما يتعلق بها وباقليمها» ط بولاق، ١٢٧٠ هـ دار التحرير للنشر والطباعة، جـ٣، ص ٩٥، وسيشار اليه لاحقاً بالمقريزي، الخطط.

قصور مدّ النيل، وكان الجوع فيها عظيماً ونتيجةً للجوع الذي أصابها، رحل جماعاتٌ كثيرة من أهلها عنها، إلى الاقطار المجاورة، مما أدى إلى تخلخل أمر الديار المصرية.[١]

وفي هذه المجاعة إختلت قيم الناس، فقد وجُد ثلاثة أشخاص أمسكهم والي القاهرة ومعهم طفلٌ صغير، قُطعت يداه ورجلاه وجوّف وحُشي بالزعفران، وشوي كما يشوى الخروف حيث كانوا يأكلونه،[٢] واشتدت الأمور سوءاً، بسبب زيادة الأسعار وضيق أحوال الناس، الذين اشتد بكاؤهم وضجيجهم في الاسواق، يشكون الجوع وشدة الغلاء، وفي الشام كانت الأســعار في غاية الأرتفاع لتأخر الأمطار فيها.[٣]

وانعكس أثر المجاعة على جميع المناحي، وعلى نفوس الناس، مما أدى إلى البخل، حتى أن الأمراء آخذوا يمنعون الأعيان من طعامهم، وأخذ المحتسب في تعزير بائعي لحوم الكلاب والميتات، وأكل الناس لحوم بني آدم، وحتى أولادهم، ووُجدت إمراة تشكو الجوع، فأُدخلت بيت أحد الأمراء وُقدّم لها الطعام، الإناء تلو الآخر، حتى اكتفت، واستندت إلى الحائط فلما حرُكت وجدُت ميته، فوجدوا في كتفها جراباً فيه يدُ إنسانٍ صغير، وشاهد ذلك السلطان والامراء.[٤]

---

(١) ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي، ت (٨٠٩ هـ/١٤٠٦م) الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين. تحقيق محمد كمال، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م، جـ ٢، ص ١١٨. وسيشار إليه لاحقا بابن دقماق الجوهر الثمين، المقريزي، السلوك، جـ ١ قسم ٢، ص ٨١٠.

(٢) ابن ايبك، ابو بكر بن عبد الله الدواداري (ت ٧٣٤ هـ/١٣٣٢م) كنز الدرر وجامع الغرر القاهرة،تحقيق، هانس روربرت مطبعة لجنة التأليف والترجمة، (١٣٧٩ هـ- ١٩٦٠م) جـ ٩، ص ٣٦٤. وسيشار إليه لاحقا بـ ابن ايبك كنز الدرر.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ ١، قسم ٢، ص ٨١٤-٨١٥.

(٤) الذهبي، الحافظ شمس الدين ابن عبدالله (ت ٧٤٦ هـ/١٣٧٤م) العبر في خبر من غبر، حققه وضبطه ابو هاجر محمد السعيد البسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥، ١٩٨٥، جـ ٣، ص ٣٨٤. وسيشار إليه لاحقا بـ الذهبي العبــر، المقريــزي، السلوك، جـ ١، قسم ٢، ص ٨١٤، المقريزي، الخطط، جـ ٣، ص ٢١.

وعاني الناس في هذه المجاعة أهوالاً عظيمة، فقد نهبت الاخباز من الأفران والأسواق، وكان الرجل يأتي بأهل بيته، معهم العصي لحمايته والعجين الذي يحمل، خوفاً من أن يُخطف منه.[1]

ولم تستطع الدولة أن تخفف من حدّة المجاعة، وذلك لخلو الأهراء السلطانية من الغلال، وذلك لقيام الملك الأشرف بتفريق الغلال، وإخلاء الأهراء منها بالإنعامات على الأمراء وغيرهم، فنفذ ما يوجد فيها من غلال، وإشتدت الأمور سوءاً بعد قيام وزير الدولة بعملية شراء الغلال الموجودة في الأسواق، كمؤونه وعليق للخيول فمات أكثر الفقراء من الجوع، والذي لم يمت كان يخرج إلى (الكيمان) وهي الآبار التي يخزن فيها الطعام، يلتقط ما يكون مدفوناً بها من حبة قمح أو حبة شعير وفول.[2]

ويذكر ابن إيبك أنه شاهد جماعة من الناس كلٌ معه قدرٌ ينتظرون الميتات[3] التي تخرج وترمى بالكيمان، فيأخذونها بالقتال بينهم، وذلك من أجل اكلها بسبب الجوع الذي لحق بهم.

وتوالت سنوات الغلاء والمجاعة، تجتاح البلاد، فأصاب دمشق سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) غلاءً شديدً، إرتفعت خلالها الأسعار بشكل كبيرٍ حيث بيع فيها خروفان بخمسمائة درهم، [4] ومات الناس من شدّة الجوع وعاد إليها الغلاء الشديد في سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٤م) حيث وصف بأنه مُفرط مما أدى إلى قلة وجود الطعام والغذاء، واستمر عدّة شهور، وبقيت الأمور على ما هي عليه، حتى قدمت الغلال من مصر، ووزعت على الناس وللتخفيف عن السكان من وطأة الجوع والغلاء، لجأت الدولة

---

(١) العيني، بدر الدين محمود، (ت ٨٥٥ هـ/١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان عصر سلاطين المماليك، حوادث وتراجم (٦٨٩هـ-٦٩٨هـ) (١٢٩٩-١٣٠٧م) تحقيق محمد محمد امين، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، جـ٣، ص ٣٠١، وسيشار اليه لاحقاً بالعيني، عقد الجمان.

(٢) النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، (ت٧٣٣ هـ/١٣٣١م) نهاية الارب في فنون الادب، تحقيق، محمد عبد البادي، محمد مصطفى زيادة، ١٩٩٠، جـ٣١، ص ٢٩٣/٢٩٤، وسيشار اليه لاحقاً بالنويري، نهاية الارب.

(٣) ابن ايبك، الدرة الزكية، جـ٨، ص ٣٦٣.

(٤) العيني، عقد الجمان، جـ٤، ص ١٣١.

وتذكر احداث سنة

(٧٧٠هـ/١٣٦٨م) عن حدوث مجاعة كبيرة في كل من مصر والشام، واستمرت ما يقارب السنة والنصف، عانى السكان خلالها كثيراً، حيث أكلوا خبز الذرة وخبز النخالة، وكانت الاسعار غايةً في الارتفاع، فلما رأى السلطان ذلك، أمر بفتح شون الأمراء، والبيع منها، وفرّق الطعام على الفقراء والمساكين تخفيفاً من حدة الأزمـــة[1] ومن شدة الجوع والغلاء أُكلت الكلاب والميتة في دمشق، وهربت أعداداً كبيرة من سكان مدن الشام المختلفة إلى دمشق، وغلا فيها الخبز وتزاحمت الناس على الأفران من مطلع الشمس حتى مغيبها املاً في الحصول على الخبز،[2] وهو عجين أسود، ولم تستطع معظم الناس الحصول عليه.[3]

وكان سبب المجاعة الجدب والقحط، حيث لم ترو معظم الأراضي الزراعية، وارتفعت الأسعار، وعانت الناس كثيراً بسبب الجوع، وقد ظهر من العامة من يحرّض على السلطان بقوله «اقتلوا سلطانكم ترخص اسعاركم».[4]

وفي مجاعة سنة (٧٧٦هـ/١٣٧٤م) التي وقعت في الشام ومصر معاً ارتفعت الاسعار جداً، واختفى الخبز من الاسواق، وبيع دون تسعير وزادت أسعار البضائع، واشتدت الاحوال بالناس، وذلك لقلة ما يكسبون من المال، وعدم وجود ما يؤكل، أما الاغنياء، فقد قست قلوبهم، وشحت انفسهم، ولم تُزدْ أجور العمال، وبقيت على ما هي عليه من ثبات قيمتها، فانخفضت القيمة الشرائية للدرهم، مما أدى إلى موت مثل هؤلاء الأجراء والعمال والصناع والفقراء ومن لا يجد منهم.[5]

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١ قسم ٢، ص ١٢٥–١٢٦.

(٢) النويري، الاسكندراني، محمد بن قاسم بن محمد (ت ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣م) الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقتضية في وقعة الاسكندرية، تحقيق، عزيز سوريال عطية، دائرة المعارف العثمانية، د. ط، ١٩٧٠، جـ٢، ص ٢٢٤، وسيشار اليه لاحقا بالنويري، الالمام. ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، قسم ٢، ص ١٢٦.

(٣) ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص ١٨٨.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١ قسم ٢، ص ١٢٥.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ٣ قسم ١، ص ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤.

إلى الغـــاء مكس الأقوات، حيث كان على كل غرارة من القمح ثلاثة دراهم ونصف[1] ودهمت الشام مجاعةٌ شديدة في سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) ارتفعت خلالها الأسعار، وتوقفت أحوال الناس، وامتنع كبارُ الأمراء والتجار عن بيع الغلال طلباً للربح، فانعدم الخبز من الأسواق، وظل الأمر كذلك، حتى جاء الامر بفتح الشون،(*) والبيع منها بما لا يتجاوز ثلاثين درهماً للأردبّ من القمح.[2]

وفي سنة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) أصابت الشام مجاعةٌ جديدُة، قلّ فيها الخبز، وازدحم الناس على الأفران وكثُر سؤالهم، وجاعت الأولاد، وكان خبز الشعير المخلوط بالزوان النقارة، يباع بمبالغ كبيرةٍ حيث وصلت الغرارة(*) بمائة وستةٍ وثمانين درهماً.[3]

وبقيت الشام تعاني من المجاعة، في سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) غلت الاسعار في دمشق وحلب، وانكشف حالُ خلقٍ كثيرٍ، وجلا كثيرون من أهلها إلى حلب وغيرها من المدن الشامية، واختطف الحرافيش الخبز من الجوع[4] وتذكر احداث سنة

---

(١) ابن كثير، ابو الفداء، (ت٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢م) البداية والنهاية، دقق اصله وحققه احمد ابو ملحم، علي بحيى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧، جـ ١٤، ص ١١٣، وسيشار اليه لاحقاً بابن كثير، البداية والنهاية، الذهبي، العبر، جـ ٤، ص ٦٩.

(*) الشون، كانت تحوي جميع انواع الغلال، والاحطاب والاتبان، كانت بطريق الفسطاط شونتان، البقلي، محمد، التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٨٣، ص ٢٠٨. سيشار إليه لاحقا بـ البقلي التعريف بمصطلحات صبح الاعشى.

(٢) ابن دقماق، الجوهر الثمين، جـ٢، ص ١٦٤، المقريزي، السلوك،جـ ٢ قسم ٢، ص ٣٩٤، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ١، ص ٤٧١.

(*) الغرارة، مكيال دمشقي للحنطة. ويعني الغرارة حرفياً «العدل من صوف أو شعر»، وهي تتألف من ١٢ كيلاً أو ٧٢ مداً دمشقياً، فالترهنتس، المكاييل والاوزان، ص ٦٤.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٤، ص ٢٠٨.

(٤) ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م) تتمة المختصر في اخبار البشر، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٦، جـ٢، ص ٣٣٧، ابن حبيب، بدر الدين الحسن بن عمر الحلبي، (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٤٨م) درة الاسلاك في دولة الاتراك، شريط ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية، رقم شريط ٥٣٩، ورقة، ٢٢٢ وسيشار اليه لاحقاً بابن حبيب، درة الاسلاك، ابن صصرى محمد بن محمد ت (٨٠٠ هـ/ ١٣٩٧م) الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم بيرنر، جامعة كاليفورنيا، بركلي ١٩٦٣، ص ٨٦، وسيشارر اليه لاحقاً بان صصرى، الدرة المضيئة.

وقد كان هذا الغلاء في عهد الاشراف شعبان،[1] وعانت الشام في السنة التي تليها من مجاعة عظيمة، ارتفعت اسعار القمح فيها، حتى أصبح الخبز كل رطل بستة دراهم، وأكل الناس الميتات والكلاب والقطط، ومات اكثرهم من الجوع، وافتقر عالم كثيرٌ منهم، وكان الغلاء عاماً بها، وبيعت الأولاد بحلب وأعمالها، من شدة الجوع[2] وبقيت المجاعات تدهم البلاد في سنوات (٧٨٢هـ/١٣٨٠م)[3] (٧٨٣هـ/١٣٨١م)[4] (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) (٧٨٦هـ/١٣٨٤م)[5]

ارتفعت خلال هذه الفترة الاسعار واكل الناس خبز الفول والشعير والنخالة والسلق والطين والميتات، وماتت الحيوانات لقلة العلف حتى كادت أن تُعدم، ووجد شعراً. (البحر المتقارب)

وماذا بمصر من المؤلمات ... فذو اللبّ لا يرتضي يسكنُ

فتركٌ وجورٌ وفرط غلا ... وهمٌّ وغمٌّ والسِّراج يُدخن

يا رب لطفاً منك في أمرنا ... فالقلبُ يدعو واللسان يؤمن[6]

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٢٨، ابن حجر، شهاب الدين احمد، (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م) انباء الغمر بابناء العمر، ط١، دار الكتب العلمية، ١٩٧٥، جا، ص ١٠٠، وسيشار اليه لاحقاً، بابن حجر، ابناء الغمر، القرماني، ابو العباس احمد بن يوسف بن احمد (ت ٩٣٩هـ/ ١٥٣٢م) اخبار الدول واثار الأول في التاريخ، مكتبة المتنبي، بيروت، ط١، ص ٢٠٥، وسيشار اليه لاحقا بالقرماني، اخبار الدول

(٢) المقريزي، السلوك،جـ٣ قسم ١، ص ٤٥٦

(٣) ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٢، ص ١٥.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١قسم ٢، ص ٢٩٨.

(٥) ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٢، ص ٨٤.

(٦) السخاوي، شمس الدين ابي الخير محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢ هـ / ١٤٩٦م) الذيل التام على دول الاسلام للذهبي، حققه حسن اسماعيل مروة، تقديم محمود الارناؤوط، حوادث وتراجم لسنوات (٧٤٥هـ - ٨٥٠هـ) مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، دار ابن العماد، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص ٢٥، وسيشار اليه لاحقاً بالسخاوي، الذيل التام.

ونتيجةً للجوع والغلاء الذي ضرب البلاد، فقد أمر الظاهر، برقوق الحكام بأن لا يُحبس أحدٌ على دين، وتم الأفراج عن المساجين.[1]

وظلت المجاعة لا تبارح الشام في سنوات (٧٨٩هـ/١٣٨٧م) (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) وبقي الغلاء قائماً بها، وكل غرارة قمح بثلاثمائة درهم، وبقيت الأمور على ما هي عليه، حتى نقل التجار والعرب قمحاً كثيراً من الديار المصرية إلى البلاد الشامية.[2]

وفي ايام الملك الناصر فرج، كثرت الفتن والشرورُ وعمّ الغلاء والفناء واشتد الجوع على أهل الشام، ولم تروَ معظمُ اراضي مصر، وماتت الناس جوعاً وشمل الخراب الشنيع عامة أرض مصر وبلاد الشام، من حيث يصب النيل إلى حيث مجرى الفرات ».[3]

ولمّا يشارف القرن الثامن على الانتهاء، حتى ضربت مصر والشام مجاعةٌ في سنة (٧٩٤هـ/١٣٩٢م) أكلت الناس فيها الخبز الأسود وخبز الشعير والذرة من شدّة الجوع، وقلت الفاكهه جداً،[4] واستمرت المجاعات في سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٦م) حيث وقعت مجاعة شديدة ارتفعت خلالها الاسعار وتزايد الغلاء والظلم، ووقفت أحوال العامة بسبب قلة المكاسب[5] واستمرت الاوضاع سوءاً في السنة التي تليها، ففي بداية السنة واوائل سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٧م) انخفضت الأسعار وخاصةً اسعار الغلال والدقيق والخبز، وذلك لكثرة وجود الغلة، ووصل الأردب من القمح إلى خمسين

---

(١) ابن دقماق، الجوهر الثمين، جـ٢، ص ٢٦٠، الصيرفي، علي بن داوود الخطيب الجوهري (ت ٩٠٠ هـ - ١٤٩٤م) نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان، تحقيق، حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠-١٩٧٣، جـ١، ص ٤٩، وسيشار اليه لاحقاً بالصيرفي، نزهة النفوس.

(٢) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤م) تاريخ ابن الفرات تحقيق قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين مجـ٩، جزء ٢، بيروت، الطبعة الامريكانية، ص ٢٥، وسيشار اليه لاحقاً بابن الفرات، تاريخ.

(٣) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص ٩٩، ابن قاضي شهبه، تقي الدين ابو بكر الاسدي، (ت ٨٥١ هـ/ ١٤٤٧م) تاريخ ابن قاضي شهبه، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي، جـ٣، ص ٢١٨ وسيشار اليه لاحقاً بـ ابن قاضي شهبة، تاريخ، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص ٣٩٨/٣٩٩.

(٤) ابن الفرات، مج ٩، جـ٢، ص ٢٠٧.

(٥) ابن الفرات، تاريخ مج ٩، ص ٢٤٠، المقريزي، السلوك، جـ٣ قسم ٢، ص ٨٦٢، ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٢، ص ٢٣٧-٢٣٨.

درهماً فغضب التجار والباعة، لانهم لم يحققوا الارباح التي يرغبون فيها، فما كان منهم الا ان حملوا ما معهم من غلال، وتوجهوا إلى الاسكندرية وغيرها، طلباً لسعر افضل، فلما راى أصحاب الطواحين ذلك قللوا من طرح الخبز في الاسواق فخاف العامة واخذوا يخطفون الخبز من الأسواق ، وحصلت لهم مشقة عظيمة [1] وعمد السلطان إلى تفريق الذهب والفضة على الناس، ولكنّ القحط تزايد، وعاقب الوالي جماعة من الطحانين وعاقب المحتسب آخرين وشهّر بهم [2] وعانت دمشق إلى جانب الجوع والقحط قيام التجار باخفاء البضاعة فيها طلباً للربح السريع، مما أدى إلى ارتفاعٍ في الاسعار عظيم.[3]

وكانت هذه السنةُ صعبةُ شديدةً على الناس، وقع فيها الفناء والغلاء واضطربت فيها الاحوال، وقل الأمن في الطرقات، وماتت الناس من الجوع.[4]

ولم تكن اول سنة من القرن الجديد (٨٠٠هـ/١٣٩٧م) بافضل من سابقاتها، فاستهلت والغلاء مستقرُ في كل المأكولات، وكثر سؤال الناس واصبحوا في شـدة عـظيمـة[5] واستمرت المجاعة في سنة (٨٠٢هـ/١٣٩٩م) جنباً إلى جنب مع الأمراض التي بالناس، فماتت اعدادٌ كبيرةٌ منهم وتوقفت أحوالهم، وتعطلت سُبل الحياة وارتفعت الاسعار في كلُ ما يؤكل، ولم تعد المؤن تصل من بلاد الشام إلى المنطقة.[6] أما الشام فالغلاء فيها خارجٌ عن الحد، حيث وصلت الغرارة من القمح ثلاثين ديناراً، وتزايدت إلى ستة وثلاثين ديناراً [7] واستهلت سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م) والتي اعتبرها المقريزي أول سنوات المحن والكوارث «والتي خربت فيها ديار

---

(١) ابن الفرات، تاريخ ، مج ٩، جـ ٢ ، ص ٤٢٩، ابن قاضي شهبه، تاريخ جـ٣، ص ٥٨١ . الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ٤٢٩.

(٢) ابن حجر، انباء الغمر، جـ٣، ص ٢٨١ ، ٢٩٢.

(٣) نقولا. زياده ، دمشق في عصر المماليك، فرانكلين للطباعة والنشر، ص ١٤٨.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم ٣، ص ٨٥٤.

(٥) ابن قاضي شهبه، تاريخ، جـ٣، ص ٦٥٢.

(٦) المقريزي، السلوك،جـ ٣، قسم ٣، ص ١٠٠٣.

(٧) الصيرفي، أنباء الهصر بابناء العصر ، تحقيق، حسن حبشي، دار الفكر العربي ،١٩٧٠، ص٥٩. وسيشار اليه لاحقا بالصيرفي، انباء الهصر.

مصر، وفني معظم أهلها، واتضعت الأحوال، واختلت الأمور خللاً آذن بدمار اقليم مصر.[1] وماتت اعداد كبيرة من الناس بالجوع،[2] وتوالت المحن في السنة التي تليها، وقل محصول الشعير وارتفع سعره، ذلك بسبب كثرة أكل الناس له، وارتفعت اسعار سائر البضائع».[3]

واشتدت المجاعة بالوجه البحري، ونتيجة لهذه المجاعه، خرج الكثير من الناس هاربين من شدة الجوع، وارتفعت اسعار الماشية والحيوانات، حيث بيعت العجلة بالريف بستة الاف درهم، ومات الفقراء بالجوع، وأكل الناس لحم بعضهم البعض، فقد وجد رجلاً قد أخذ قلب وكبد اخر ليأكلهما من الجوع فقُبض عليه ولما سُئل عن فعلته تلك اجاب بان الجوع قد حمله على ذلك.[4]

وفي عهد الناصر فرج، حدثت مجاعة شديدة في سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) وذلك بسبب قيام امراء الدولة في عهده بتخزين الغلال، وبيعها بأعلى الأسعار وزيادة أجرة الأراضي على الفلاحين، وابطالهم السكة الإسلامية من الذهب، ونتج عن هذه السياسات خراب مدن مصر والاسكندرية، وخربت مدن الصعيد ويقال انه لكثرة الموت فيه، بطُلت منه أربعين خطبة كانت تقام أيام الجمع. «وتلاشت مدن الصعيد كلها، وخرب من القاهرة وظواهرها، زيادة على نصف أملاكها ومات من أهل اقليم مصر بالجوع نحو ثلثي السكان».[5]

ويعلق المقريزي على هذه السياسات بقوله «لأجرم ان خرب إقليم مصر وزالت نعم أهله، وقلت اموالهم، وصار الغلاء بينهم، كأنه طبيعي لا يُرتجي زواله.[6]

وبسبب انعدام القمح في السواحل وفي مخازن الأمراء والتجار اختفى الخبز من الاسواق فاقُفلت الافران، وهجمت الناس على الخبز، وانتشر الغلاء والجوع في

---

(1) المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم ٢، ص ٨٥٤.

(2) المصدر نفسه ص ١١١٩، ١١٢٠.

(3) المصدر نفسه ص ١١٣٥.

(4) المصدر نفسه، ص١١٤٥.

(5) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم ٢، ص ٢٢٦.

(6) المصدر نفسه، جـ٤ قسم ١، ص ٢٢٨.

قبلي مصر وبحريها وكان ذلك في حوادث سنه (٨١٨هـ/ ١٤١٧م) وكان سبب هذه المجاعة الفأر الذي اصاب الزرع، وعندما اتجهوا لشراء القمح من سكان بلاد الصعيد، وأمتنع اهله عن البيع بسبب تحديد السعر.[١] وبسبب الغلاء الشديد، توقفت عمليه البيع والشراء، لانشغال الناس في الحصول على الأقوات «حيث كان يتوجه بعضهم إلى الافران - من نصف الليل، للحصول على الخبز، وبعضهم يتوجه إلى السواحل ليحصل له شيء من القمح، فمنهم من يجد ومنهم من يرجع خائباً، فقلت أصناف المآكل، وعظُم الخطب». ولجاء الناس بعد ان نبتت الزروع، ان رعت بهائمهم الزرع، وأكلت الناس الفول الأخضر وفريك الشعير، ثم أخذوا يتوا فدون على الأرياف، لشراء القمح من أهل الريف بأنفسهم [٢] ووقعت المجاعة في كل من الرملة ونابلس، ولم يجد الناس شئيا وان وجدوه فبجهد شديد، [٣] وأنعدم الخبز من الدكاكين وكذلك الطحين من الأفران والطواحين، وأكلت أكثر الناس خبز الشعير والحمص والفول، ومنهم من لم يجد الخبز لمدة عشرة أيام، وكان الأغنياء الذين يملكون المال يدورون في المدينة وسواحل البحر ولا يجدون شيئاً.[٤]

وحدثت في مصر مجاعة ارتفعت خلالها الاسعار وقلت الغلال المجلوبة إلى البلاد وكان ذلك في سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) [٥] وكان الجوع شديدا في الوجه البحري، وقد أكلت من شدة الجوع الكلاب والسنانير، ومات أُناس كثيرون في مصر والقاهرة وخلت الكثير من القرى من أهلها وساكنيها.[٦]

---

(١) ابن حجر، أنباء الغمر، ج٧، ص١٨٦

(٢) ابن حجر، أنباء الغمر ص١٨٧. السخاوي، الذيل التام، ص ٤٩٤، ابن إياس بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٤، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص ٣٥٧،٣٥٦.

(٣) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٧، ص ٢١١.

(٤) العيني، بدر الدين محمود، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق فهيم شلتوت، مراجعة محمد زيادة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر- القاهرة، ١٩٦٧، السخاوي، الذيل التام، ص ٤٩٣، ابن العماد الحنبلي، ابي العلاء عبد الحي، (١٠٨٩هـ/١٦٧٨م) شذرات الذهب في اخبار من ذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأوقاف الجديدة، بيروت،، جـ٧، ص ١٣٤، وسيشار اليه لاحقا بابن العماد، شذرات الذهب.

(٥) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص ٤٥٢.

(٦) المقريزي، السلوك،جـ ٤، قسم١، ص٤٨١، ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٧، ص ٣٦٠- إبن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٦،٤٥.

واستمر الحال من فقد الخبز وهو العنصر الاساسي في طعام الناس إلى سنة (٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م) حيث بلغ سعر الأردب دينارين، مما حدا بالناس إلى أكل الذرة والأكثار، من زراعتها وذلك بسبب سوء الأحوال، وخراب القرى وبوار الأراضي وقلة المواشي «حتى لقد صار اللبن عندهم طُرفة من الطُرف». [١]

وفي المجاعة التي اصابت البلاد في سنة (٨٣٠هـ/١٤٢٦م) تكالبت الناس على شراء القمح وغيره من الغلال، ونلاحظ ان الغلال كانت متوفرة بكثرة في بداية العام، ولكنّ رغبة اصحابها في تحقيق الارباح، جعلهم يمتنعون عن البيع، واخذ أصحاب رؤوس الاموال في شراء كميات كبيرة منها وتخزينها طمعاً في تحقيق الأرباح، وبيعها باعلى الاسعار للمحتاجين «حتى ان بعض من لم يكن شيئاً مذكورا، اشترى هذه الايام الف أردب من القمح»[٢] وكان اغلب المجاعات ينتج غالباً عن قلة ري الاراضي والدوده، وانخفاض النيل بسرعة، وكانت هذه الامور هي التي تنشأ عنها المجاعات غالباً.[٣]

وتفاقمت الأمور سوءاً في سنوات (٨٥٣هـ/١٤٤٩م) و (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) فنهب العوام الخبز من الأفران والدكاكين، كما هي عادتهم، وأرتفعت أسعار الغلال، [٤] وكانت الناس في شدة عظيمه من غلو الأسعار في سائر المأكولات، وخاصةً الغلال وقد بقيت هذه المجاعة والغلاء لمدة سنتان والأسعار غير ثابته تعلو تارة وتنخفض أخرى [٥] ووصفت سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) بأن الناس فيها «لا تجدهم الا باكياً أو متضرعاً إلى الله تعالى، أومهموماً لكثرة عياله، أو تجد في بعض الأماكن، فلا

---

(١) المقريزي، السلوك،جـ٤، قسم١، ص ٥٢١.

(٢) المقريزي، السلوك،جـ٤، قسم٢، ص ٧٥٠.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم٢، ص ٨٧٣، ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٨، ص ١٥٠-١٥١، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص ١٦٦.

(٤) ابن تغري بردي، يوسف ت (٨٧٤هـ/١٤٦٩م) حوادث الدهور في مدى الايام والشهور تحقيق، محمد كمال عز الدين، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠، جـ١، ص ٢٢١، ٢٢٧، وسيشار اليه لاحقا بـ ابن تغري بردي، حوادث الدهور، السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك مكتبة الكليات الازهريه، القاهرة، د.ط، ص ٢٦.

(٥) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ١، ص ٢٨٥.

يكون كلامهم غالباً الا في القمح والدقيق والخبز، فكان هذا دأب الناس في هذه الأيام»[1] وكان القحط والجوع وعدم الرَي سبباً في حدوث هذا الأمر.

واستمرت الأحوال على ما هي عليه فانخفضت مراتب الناس وتساوى رئيسها ووضيعها، وانعدم الخبز من الأفران، وأصبح لا يستطيع الحصول عليه، الا أصحاب الوجاهة والقوة في الدولة.[2] وامتدت المجاعة إلى الشام، وذلك بسبب كثرة الهاربين اليها من شدة الغلاء في مصر، وعِظم الثلوج التي سقطت بها وكان الغلاء الشديد، قد طال مكوثه في مصر، مما أدى إلى افتقار الناس، وعندما يشتد الجوع والغلاء في مصر، يعمد سكان القرى والعربان إلى الهجرة إلى القاهرة، فكثر الفقراء في المدينة، وكانوا أفواجاً كبيرة، يسألون في الطرقات، ومات كثير منهم من شدة القحط.[3] ويعلق ابن تغري بردي على هذا الحال بقوله «فإن الديار المصرية قد أشرفت على الخراب، من عِظم ما وقع فيها في هذه السنين، من الغلاء المتداول، والقحط المتطاول، ثم الشراقي العظيم، وقد نفد ما بأيدي الناس من المتاع والأموال، وخلت غالب القرى من أهلها».[4]

ولم ينته القرن التاسع حتى ضربت المنطقة مجاعة قوية في سنة (٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م) وتكالب الناس على شراء الغلال والبضائع، وأصبح رغيف الخبز، سيء الصنعة وصغير الحجم مع سواد فيه، وكان معظم الرغيف يتكون من الشعير، عِوضاً عن القمح، وأكلته معظم الناس [5] واستُخدم خبز الذرة والدخن[6] في الأكل، ويعلق بعض المؤرخين على هذا الأمر بقولهم «وهذا قط ما وقع ولا في الغلاء الذي جاء في دولة الملك الظاهر جقمق، وتناهى سعر القمح إلى سبعة أشرفيات كل

---

(١) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ١، ص ٢٨٩، ٢٩٠.

(٢) ابن تغري بردي، ص ٢٨٩، السخاوي، التبر المسبوك، ص ٨٥٤.

(٣) المصدر نفسه،جـ٢، ص ٣٢٧.

(٤) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ٢، ص ٣٢٩.

(٥) الصيرفي، أنباء الهصر، ص ١٨٧.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٧.

أردب، ولم تأكل الناس الذرة والدخن في تلك الأيام».[1]

وبدأ القرن العاشر الهجري، والناس تعاني إلى جانب الغلاء والمجاعة وقلة الأقوات من أذى المماليك الجلبان، ففي سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٦م) وقع غلاء شديد، وكان النهب والقتل في البلاد لمدة ثلاثة أيام متواليه على يد المماليك، حيث كانوا يدخلون البيوت وينهبونها.[2]

وبقي الغلاء والمجاعة مستمران في سنوات (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) [2] (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)[3] (٩١٠هـ/١٥٠٤)[4] وفي سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) حدث الغلاء في الشام، وذلك بسبب خراب قرى حوران، والتي لم تعد تزود المنطقة بالغلال، وكان ذلك بسبب نائب دمشق والذي أخذ في نهب الغلال ومعاداة الشيوخ.[5] وحدث الغلاء في سنوات (٩١٨هـ/١٥١٢م)[6] و(٩١٩هـ/١٥١٣م).[7]

ومن هذا الاستعراض لأحداث المجاعات التي أصابت مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، وخلال قرنين متتالين من الزمان، نستطيع القول أن المنطقة قد عانت من شدائد عظيمة ونتائج اقتصادية وإجتماعية وخيمة أثرت على البنيان العام للدولة، وأصابها الخلل، وهزّ بنيانها الاجتماعي والاقتصادي، وجعلها ترزح تحت أعباء ضخمة قضت على الازدهار الذي تمتعت به.

---

(١) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٤٧.

(*) الدخن هو نبات عشبي من النجيليات حبه صغير املس كحب السمسم ينبت برّيا أو مزروعا، أنظر ابراهيم مذكور المعجم الوجيز جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية ١٩٧٠، ص ١٣٠.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٤٢٠.

(٣) ابن طولون، محمد بن علي بن داوود، ت (٩٥٣هـ/ ١٥٤٦) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تاريخ مصر والشام، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، د.ط، ١٩٦٤، جـ١، ص ٢٣٩، وسيشار اليه لاحقا بابن طولون، مفاكهة الخلان.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٦٦.

(٥) ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢٩١.

(٦) المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٧٥،٣٧٤.

(٧) ابن طولون، اعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الكبري، تحقيق محمد احمد دهمان، دار الفكر ط٢، ١٩٨٤، جـ١، ص٢٢٣، وسيشار اليه لاحقا بـ ابن طولون اعلام الورى.

أولاً: العوامل الطبيعية للمجاعات

أ- مشكلة المياه والرّي

لعب النيل دوراً كبيراً في حياة سكان مصر، فوفاء النيل ايذاناً ببدء حياة الخصب والهناء، وإما إذا قصر عن الزيادة فالجدب والقحط والمجاعة، ما سيحلان بالبلاد.

ومن أجل ان يتم الخراج، فإن الزيادة التي يجب ان يصل إليها النيل حتى يحدث الرّي الجيد للمزروعات، هي ستة عشر ذراعاً، وإذا زاد النيل ذراعاً آخر، فإن أموال الخراج ستصل إلى مائة ألف دينار، والزيادة الجيدة هي ثماني عشر ذراعاً، فإذا وصلت إلى هذا الحد فإنه يتم فتح الخلجان والقنوات، ويُنقل منها الماء إلى البلاد البعيدة من مجرى النيل شمالاً ويميناً فتروى البلاد.[1]

أما إذا قصرَ النيل عن ست عشر ذراعاً فلا يتم جباية الخراج للسلطان.[2] لكن معنى هذا عدم رواية الماء للأرض مما يؤدي إلى قلة الانتاج الزراعي.

وهناك من يرى أنه بالرغم من أن الزيادة إلى ستة عشر ذراعاً فيها خراج للسلطان، وخصب للناس الا أنه ضارُ بالحيوانات وذلك لانعدام المراعي، وان أفضل زياد هي سبعة عشر ذراعاً لأن معنى هذا، أنه سيكون فيه خيرُ للبلاد، وريٌّ لجميع الأراضي أما إذا تخطى السبع عشرة ذراعاً، فإن معنى هذا حدوث الوباء بمصر.[3]

---

(١) شيخ الربوة، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي طالب (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بطرسبرغ، المطبعة الاكاديمية، ١٨٦٥هـ/ص ٩٠.

(٢) ابـن جبير ابو الحاسن محمد (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م) الرحلة، دار صادر، بيروت ١٩٦٤، ص ٢٩. وسيشار اليه لاحقا بـ ابن جبير، الرحلة.

(٣) النويري، الالمام بالاعلام، جـ٣، ص٢٦٦.

وكان يتم معرفة زيادة أو نقصان مياه النيل، عن طريق المقياس حيث يوجد بظاهر المدينة جزيرة الروضة محاطه بالمياه، وفيها عمود من الرخام الأبيض أقامه المهندسون، ويبلغ إرتفاع القسم الأعلى منه فوق الماء، اثنى عشر ذراعاً، وهو مفصل على درجات تشير إلى مقدار ارتفاع المياه، ويوجد عنده حارسٌ مكلفٌ بالتبشير كل يوم عن مقدار الارتفاع، وعند زيادته يقول :

«الحمد لله إن النيل قد ارتفع اليوم كذا وكذا» وعندما يفي الماء قياسات العمود، يعلم الناس أن الفيض قد أصبح مناسباً وغمر الأرض، فيسارع الفلاحون والمُلاك إلى حفر الخلجان والقنوات من أجلَ الرّي».(1)

وإذا تناقص النيل عن ستة عشر ذراعاً، استغل التجار الوضع وأخذوا يحتكرون الغلال لا سيما القمح، ولا يقومون بعملية البيع طلباً للربح، وفيه قيل شعراً: (مجروء الكامل)

أذكر لمن طـلب الغلا　　　عم البلادَ منافعي

وعيونهم بعد الوفاء　　　قلعتها بأصابعي(2).

وهذا الشعر على لسان حال النيل، أي أن وفائه وزيادته إلى ستة عشر ذراعاً، قد أحبط محاولات من يقومون بالتخزين لأجل الربح وأنعش نفوس الفقراء والضعفاء.

وكان نقص النيل أو توقفه عن الزيادة إيذاناً ببدء المجاعة والمحن، فقد نقص النيل في سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) ولم يوفَ وأخذت العامة تتشأم من السلطان، وأعتبرت أن جلوسه في مجلس الحكم هو الذي أدى إلى حدوث هذا الأمر، وكان يؤدي نقصه إلى انعدام الزراعة، وغلاءً في الأقوات والأسعار وحدوث للمجاعة

---

(1) ابن جبير، الرحلة، ج١، ص٢، التجيبي السبتي، القاسم بن يوسف (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م) مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحي منصور الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٣٥، ص ١٦٤. التطلي بنيامين (الرحلة ما بين اعوام (٥٦١هـ-٥٦٩) (١١٦٥-١١٧٣) رحلة بنيامين، ترجمة عزار حداد- المطبعة الشرقية بغداد ١٩٤٥، ص ١٧٣-١٧٤، الشامي، عبد العال، مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي، ط ١، (١٤٠١هـ-١٩٨١م)، ص ٥٣.

(2) النويري، الالمام بالاعلام، جـ٣، ص ٢٦٧.

والغلاء،[1] وكان الأمر عينه يتكرر في سنوات نقصه ففي سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) لم يتم الوفاء فحصل الغلاء واشتد في مصر والشام، واجدبت معظم المناطق من برقة إلى بلاد المغرب، وأجدب الحجاز ولكنّ نصيب مصر من ذلك كان أعظم [2] وفي سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٥) انخفض النيل جداً وأدى ذلك إلى حدوث المجاعة والطاعون فُقضي على الكثير من الناس.[3]

وتناقصت مياه النيل في أعوام (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) حيث وصل أرتفاع الماء إلى اقل من ستة عشر ذراعاً، فتضرر معظم الناس وخاصةً الفقراء، وارتفعت الأسعار، وانعدم الخبز من الأسواق وأصاب مصر الجفاف، وانعدم الشعير، حتى ان العليق الذي فُرقً على خيول المماليك كان من الفول، وارتفعت اسعار التبن والأعلاف بشكل عام.[4]

وتناقص النيل في سنوات (٨٢١ هـ/١٤١٨م) و (٨٢٢هـ/١٤١٩م).

مما ادى إلى حدوث الغلاء في سنتين متتاليتين،[5] وقال فيه احدهم.

(الكامل)

قد قلت لما ان تزايد نيلنا   **أو كاد ينزل عن وفاء المقياس**

يا نيل يا ملك المياه باسرها   **ما في وقوفك ساعةً من باس**[6]

---

(١) المنصوري، التحفه الملوكية، ص ١٤٤.

(٢) العيني، عقد الجمان، جـ ٣، ص ٢٧٧. السيوطي، جلال الدين الشافعي (٩١١هـ/ ١٥٠٥م) حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات، بشارع باب الخلف بمصر لصاحبيا اسماعيل عبد الحافظ المجيز بالمحاكم الاهلية د.ت، جـ٢، ص ١٩٧. وسيشار اليه لاحقا بـ السيوطي، حسن المحاضرة.

(٣) ابن الوردي، تتمة المختصر، ص ٢٣٣.

(٤) السخاوي، الذيل التام، ص ٤٢٠. المقريزي، السلوك، جـ٣ قسم ٣، ص ١١١٦. الصيرفي نزهة النفوس جـ ٢، ص ١٨٠.

(٥) ابن حجر، ابناء الغمر، جـ ٧، ص ٣٢٤.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ٢، ص ٤٨-٤٩.

وكما يؤدي النقص إلى حدوث المجاعات، فإن الفيضان الزائد عن الحد، يؤدي إلى عواقب وخيمة، ففي سنة (٧٠٧ هـ/١٣٠٧م) زاد النيل وتجاوز الحد حيث بلغت زيادته ثمانية عشر ذراعاً واحدى وعشرين اصبعاً، ورافقه هبوبُ للرياح، مما ادى إلى خراب المزروعات وجفافها، ولم يُجمع في زمن الحصاد، الا القليل مما ادى إلى ارتفاع الاسعار، ووصل فيها الاردب من القمح إلى خمسين درهماً.[١]

وغرقت الكثير من البلاد –نتيجة للزيادة في مستوى مياه الفيضان وهلكت الناس والمزروعات والحيوانات، وغرقت شون الغلال والاقصاب والمعاصر،[٢] وفي حوادث سنه (٧٧٣هـ/ ١٣٧١ م) أدت زيادة النيل إلى انقطاع الناس من الطرقات، وتأخر المزروعات عن اوانها، وتضرر الفلاحون، وتقطعت الجسور، وانهدمت معظم البيوت المطله على النيل وفيه قيل شعراً :

(المتقارب)

طغى النيل عـن حدّ عاداته وعلمّ الجهدَ في العالمين

وصرنـا نكـشف عوراتـنا وكنا نخوض مع الخائضين[٣]

وزاد النيل في سنه (٧٩٦ هـ/ ١٣٩٣م) مما أدى إلى ارتفاع في الأسعار، وامتنع التجار والأمراء عن البيع وكثر الخوف من ان تقحط البلاد، ولم تزرع معظم الفلاحين ارضها خوفاً من الخسارة[٤].

وكان يعتبر وفاء النيل وكسر الخليج حدثا عظيما في حياة الناس، فاذا ما اوفى، أخذ الشعراء والأدباء يكتبون في بشارته وكانت كتاباتهم من عيون الأدب والبلاغة.

---

(١) المقريزي، السلوك،جـ١ قسم ٢، ص ٣٩.

(٢) ابن الوردي، تتمة المختصر جـ٢، ص ٢٦٧، ٢٩٠، المقريزي، السلوك، جـ٢ قسم ١، ص ٢٥٨.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور،جـ١ قسم ٢، ص ١٠٥، ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص ٧٤.

(٤) المقريزي، السلوك ص ٨٤٢، ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص ٤١٤.

فقدُ كتب في بشارة النيل نثرا «لو خاصم النيلُ مياه الارض لقال عندي قبالة كلُ عينٍ اصبع، ولو فاخرها لقال، أنت بالجبال اثقل. وأنا بالملق اطيع والنيل له الآيات والكبر وفيه العجائب والعبر.[1]

وقيل فيه شعراً: (البسيط)

قالوا علانيل مصر في زيادته حتى بلغ الاهراما حين طماً

فقلت هذا عجيب في بلادكم إنا ابن ست وعشر يبلغ الهرما[2]

وهكذا نجد ان النيل قد لعب دورا مهماً، من حيث الزيادة أو النقصان في حدوث المجاعه حيث كان يؤدي ذلك إلى اهلاك للزروع وانقطاع للجسور، وانهدام للبيوت وتشرد للاسر وارتفاع كثير في الاسعار مما يؤدي إلى حدوث اضرار كبيره للدوله والناس على حد سواء، وذلك لان النيل مصدر الرّي الوحيد في مصر، فإذا إنخفض عن حد الوفاء فات أوان الزراعة، أما إذا زاد فإنه يؤدي إلى إغراق الأراضي الزراعية ويؤدي إلى تأخر الزراعة، بالاضافة إلى إزدياد الخوف عند الناس خشيةً من حدوث المجاعة، ولانعدام الزراعة، فيسارعون إلى تخزين الغلال، كما يسارع التجار إلى تخزين البضائع من أجل تحقيق الأرباح الكبيرة. مما يؤدي إلى ارتفاع في الأسعار، ويشمل رفع الأسعار «كل ما يُباع ويشترى من مأكل ومشرب وملبس».[3]

وقد بلغ عدد موجات الغلاء والمجاعات الناجمة عن قصور النيل ضمن الفترة الواقعة بين (٧٧٦هـ-٩٠٨هـ) (١٣٧٤م - ١٥٠٢م) خمس عشرة غلوة وكان أكثرها تأثيراً في السكان المجاعات التي حصلت في السنوات (٧٧٦هـ-٧٧٧هـ) (١٣٧٤م-١٣٧٥م) (٨٠٦-٨٠٨هـ) (١٤٠٣م-١٤٠٥م) (٨٥٤-٨٥٥هـ) (١٤٥٠-١٤٥١م) والتي تفاوتت في تأثيرها وفقاً لطبيعة الامراض التي نشأت عنها، ومدة استمرارها، وموقف الدولة،

---

(١) الصفدي، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، دت، مج ٢، ص ٧٥.

(٢) الصفدي، الغيث المسجم، مج ٢، ص ٧٦.

(٣) المقريزي، اغاثة الامة، ص ٧٩.

وسياستها تجاه الرعايا، كاحتكار الغلال، والأوضاع المناخية وخاصة البرد، والأوضاع الاقتصادية للفئات المختلفة قبل المجاعة.[1]

وكان للأمطار أيضاً من حيث ندرتها أو شدتها، دوّرا في حدوث القحط ومن ثم المجاعة، وساهمت في ارتفاع الأسعار، وخاصة في بلاد الشام وفلسطين والتي تعتمد على الأمطار بشكل رئيسي في عملية ريّ الأراضي الزراعية. فكثيراً ما كانت غزارتها أو شحها سبباً في تلف المحاصيل الزراعية، وهلاك الناس والحيوانات، وكان سقوط المطر في غير أوانه يؤدي إلى تلف المزروعات، ففي سنة (٧٩٥ هـ/ ١٣٩٢م)، حصل جفافٌ وجدب، حيث توقف المطر، وخافت الناس ونشفت الآبار، وهلكت المواشي بسبب قلة الزرع الذي ترعاه ورحل الناس عن أوطانهم ونظموا فيه شعراً. (المجتث)

أهل الشام دعوهم على الذنوب نداما[2]

شتاهم قد تقضى وهم حياري بلا ماء.

✓ وكان عدم نزول المطر سبباً في أرتفاع اسعار الغلال والبضائع وارتفاع سعر الماء، ففي حوادث سنة (٧٧٥هـ-١٣٧٤م) بيعت راوية الماء بخمسة دراهم، وماتت الحيوانات من الجوع وقلة العلف وشرق غالب البلاد نتيجة لهذا الأمر.[3]

وكان إشتداد المطر يؤدي إلى غرق المزروعات وانهيار البيوت، فقد إنهدم في الرملة نتيجة للأمطار الغزيرة أكثر من ألف بيت،[4] وكان لسقوط البرد والثلج أثرٌ في إتلاف الزروع وأبادت الأمطار والبرد ثمانمائة فدان، وأدى إلى موت ونفوق كثير من الأغنام في سنة (٨١٢هـ-١٤١١م) [5] وفي سنة (٨٢٦هـ-١٤٢٦م)

---

(١) عامر نجيب ناصر، الحياة الزراعية في مصر زمن الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤/ ٩٢٣هـ) (١٣٨٢-١٥١٧م)، رسالة دكتوراة غير منشورة الجامعة الاردنية، ١٩٩٨، ص ٩٤.

(٢) ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل، ت (٧٣٢ هـ/ ١٣٣١م) المختصر في اخبار البشر، ٤أجزاء دار البحار بيروت،، ١٩٦١، جـ٤- ص ٩٢، المقريزي، السلوك، جـ٢ قسم ١، ص ١٦٠، ١٦١.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، قسم ٢ ص، ١٢٥

(٤) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص ٤٧٤

(٥) ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٧، ص ٤٧٤.

سقطت أمطار غزيرة ادت إلى اتلاف الأشجار وغلاء الأسعار.[1]

✓ وللصقيع دَورٌ في إتلاف الزروع والثمار، ففي سنة (٧٧٥هـ-١٣٧٥م) أصابت صقعة غالب فواكه حلب، واتلف الهواء الشديد الكروم والزروع وخسر الناس الأموال، ويبس كثيرٌ من القمح والشعير في غوطة دمشق بسبب قلة المطر، فرعت الدواب الزرع، وأتلفت محاصيل الناس، وضاعت الأموال والأرزاق، وغلت الأسعار.[2]

وكان الناس يعانون إلى جانب انحباس المطر والقحط والغلاء، من ظلم النائب لهم، ففي سنة (٨٩١هـ-١٤٩١م) تزايد ظلم النائب للرعية، وقلت أقواتهم[3] ووقفت أحوال الناس، بسبب كثرة وقوع الثلج، وغلاء سعر القمح، حيث أصبحت الغرارة بنحو أربعمائة، وصار سعر اللحم بخمسة دراهم.[4]

ولكن وبالرغم من ذلك، فإن سقوط المطر بعد إنقطاعه، كان يُعيد الحياة إلى الناس، فيزرعون ويسقون مواشيهم، ففي سنة (٨٨٨هـ-١٤٨٣م) حدث مطر في السابع عشر من كانون الأول وكان أول مرّه يقع في تلك السنة وانتفع به عامة الناس وأدى إلى انخفاض السعر بعد الغلاء الذي كان من قبل.[5]

مما سبق ندرك ان الأمطار من حيث ندرتها أو غزارتها قد لعبت دوراً كبيراً في خراب الزروع، وهجرة الفلاحين والسكان أراضيهم بحثاً عن الماء، وهلاك للدواب والمواشي، وانهدام للبيوت، وارتفاع أسعار سائر البضائع، وخسائر فادحة تتكبدها الدولة والأفراد على حدٍ سواء.

---

(١) المصدر نفسه، جـ١، ص ٩، العيني، عقد الجمان، جـ٢، ص ٤١٢.

(٢) ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص ٢٢٤.

(٣) العليمي الحنبلي، الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن احمد بن رجب (ت ٩٢٨هـ ١٥٢١م)، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، دار الجيل بيروت ١٩٧٣، جـ٢، ص ٣٧٢، وسيشار اليه لاحقا بـ العليمي الحنبلي، الانس الجليل، البصروي، علاء الدين علي بن يوسف (ت ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م) صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في العصر المملوكي تحقيق اكرم العلبي دار المأمون للتراث دمشق، ١٩٨٨، ص ١٠٨/١١١. وسيشار اليه لاحقا بـ البصروي تاريخ.

(٤) ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ١٥٥.

(٥) البصروي، تاريخ، ص ٩٢.

ب- القوارض والآفات الزراعية

وللآفات الزراعية والقوارض، من فأرٍ وجراد ودودة، أثرٌ واضح في حدوث الأزمات الاقتصادية وارتفاع الأسعار، بسبب تأثيرها المباشر على النباتات والأشجار والمزروعات، ولقد حضيت مصر والشام بنصيب وافرٍ من هذه الحوادث.

فالجراد عدو للفلاح في الدولة المملوكية، ففي سنة (٧٠١هـ-١٣٠١م) هاجم الجراد، دمشق وخاصة الغوطة، حيث تركها عِصياً مُجردة وأدى إلى يباس الأشجار، حتى أن أحد الشعراء قال فيه : (البسيط)

مرّ الجراد على زرعي فقلت له مُدَّ الجناح ولا تجنح لا فساد[1]

فقال منهم خطيبٌ فوق سنبلةٍ أنا على سفرٍ لا بدَّ من زادِ

وبقي الجراد يهاجم البلاد بين الفينة والأخرى، ففي سنة (٧٤٨هـ-١٣٤٧م) هاجم حلب، وخرج إليه العساكر والفلاحين لقتله ودفنه، وقيل فيه :

(مجزوء الرمل)

قصد الشام جرادٌ سنّ للغلات سنا

فتصالحنا عليه وحقّرنا ودّفنا[2]

وأثّر الجراد في غلاء الأسعار ففي سنة (٧٦٥هـ-١٣٦٣م) كثُر بالشام وأتلف الزروع مما أدى إلى غلاء الأسعار ووصلت الغرارة القمح في دمشق ١٨٠درهماً وفشت الأمراض[3] والطواعين فيها، وهاجم الشام مرة اخرى، واتلف الزروع

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٩٢٣.

ابن سباط، حمزه بن احمد بن عمرة (ت ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م) صدق الاخبار المسمى بتاريخ ابن سباط تحقيق عبد السلام التدمري (جروس برس) طرابلس ط١، ١٩٩٢م، جـ٢، ص ٥٧٦. وسيشار إليه لاحقا بـابن سباط تاريخ.

(٢) ابو الفداء، المختصر، جـ٤، ص ٨٤٧، ابن الوردي، تتمة المختصر، جـ٢، ص ٣٣٤، ابن حبيب، درة الاسلاك، ورقة ٢١٩.

(٣) المقريزي، السلوك،جـ٣ قسم ١، ص ٩٢.

والأشجار، مما أدى إلى غلاء الأسعار وكان هذا في سنة (٧٦٦هـ-١٣٦٤م).[1]

وظل الجراد يهاجم البلاد المرّة تلو الأخرى، ففي سنة (٨٠٣هـ-١٤٠١م) جاء إلى دمشق واتلف المزروعات بعامة أرض الشام، ولم يُبقِ فيها شجراً أخضر.[2] كما هاجمها في سنة (٨٠٤هـ-١٤٠٢م) وفي عام (٨٤١هـ-١٤٤١م) انتشر في القاهرة ومصر [3] أما بيت المقدس، فقد جاء اليها جرادٌ كثير، اكل غالب ثمرة الكروم والزرع والخضروات في سنة (٨٨٩هـ-١٤٨٤م).[4]

أما الفأر فقد كان يهاجم المحاصيل الزراعية، ويبيدها عن بكرة أبيها وقد هاجم الاراضي مراراً وتكراراً، ففي سنة (٦٥٩هـ-١٢٥٨م) خرج على الغلال في الجـولان[*] وحـوران[*] واعمالهما واكل ما يقدّر بثلاثمائة الف غرارة من القمح غير الشعير، وارتفعت الأسعار، حتى اشترت الناس الغرارة القمح بأربعمائة درهم في دمشق.[5]

وهاجم الفأر البيادر في الشام، حيث أتلف الغلال والمزروعات فيها وكان هذا في سنة (٧٧٠هـ-١٣٦٩م) مما أدى إلى خراب المزروعات في البلاد.[6] أما في مصر،

---

(١) السخاوي، الذيل التام، ص ١٤٤.

(٢) المقريزي، السلوك،جـ ٣ قسم ٢، ص ١٠٦٤.

(٣) ابن حجر، انباء الغمر، جـ٥، ص ٨، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٤١٧، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٨٦-١٨٧.

(٤) العليمي الحنبلي، الانس الجليل، جـ٢، ص ٢٣٢، ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج١، ص ٦٧.

(٥) ابن ايبك، الدرة الزكية في اخبار الدولة التركية، تحقيق او لرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١، جـ٨، ص ٨٥. وسيشار اليه لاحقا بـ ابن ايبك، الدرة الزكية.

(*) الجولان بالفتح ثم بالسكون، قرية ويقال جبل من نواحي دمشق، ثم عمل من حوران – قال ابن دريد، يقال للجبل حوران حارث حوران، الحموي، شهاب ابن عبدالله معجم البلدان، مج ٥،ج١ دار صادر بيروت، ط ١، ١٩٩٣، وسيشار اليه لاحقاً بياقوت، معجم البلدان.

(*) حوران، كورة واسعة من اعمال دمشق، من جهة القبلة، ذات قرى كثيرة، ومزارع وحرار، ذكرها العرب في اشعارهم كثيراً، الحموي، معجم البلدان، مج ٥، جـ٢، ص ٣١٧.

(٦) المقريزي، السلوك،جـ ٣ قسم ١، ص ١٧٣.

فقد ظهر فيها فأر لا يُحصى، حصد الزرع، وأتلف أجران(*) الغلال، بحيث كان يذهب ربع الجرن في ليلة واحدة، مما جعل الناس يحملون المشاعل، طوال الليل، لقتل الفئران.[1] وأثر هذا الأمر على خراج السلطان، حيث انكسر له بناحية منفلوط (*) نحو ستين ألف أردب فول، وكان هذا في سنة (٧٣٨هـ-١٣٣٧م).[2]

وكثرت فراخ الفأر في الشام سنة(٨٢٨هـ-١٤٢٤م) وتسلطت على الزروع، وحصل ضرر عظيم للناس، وارتفعت أسعار الفول والشعير إلى ١٥٠ درهماً، وظل في زيادة حتى وصل إلى ثلاثمائة درهم.[3]

أما الدودة فقد وقع في سنة (٧٢٨هـ-١٣٢٧م) آفة من الدود وقت الزرع وطلب من الولاة إحصاء وكتابة ما تلف وبلغ في بعض نواحي البلاد نصف الزرع مما أدى إلى ارتفاع الأسعار، وبلغ سعر القمح عشرين درهماً للأردب، بعد أن كان بثلاثة عشر [4] وهاجمت الدودة المزروعات في سنة (٨٣١هـ-١٤٢٧م) وأكلت البرسيم الأخضر، والقمح وكان السبب في ذلك شدّة الحر وانقطاع الامطار.[5]

ووصف المقريزي أثر الدودة بقوله «وأتلفت الدودة الكثير من البرسيم المزروع، حيث أتلفت ١٦٠٠ فدان، وتلف القمح، وشمل هذا الخراب، قرى وأراضي

(*) الاجران، جمع جرن والجرن مساحة من الاراضي الخالية من الزراعة مستوي يتم فيها درس المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير، والفول والحلبة والارز، والبرسيم، حيث يتم فيها فصل البذرة عن الساق، وحفر الاجران لا زالت منتشرة في ريف مصر، لدرجة انه لا يوجد قرية تخلو من عدد من حفر الاجران وتكثر هذه الاجران في فصل الصيف فقط، حينما تنضج المحاصيل المذكورة.

النبراوي، رافت – اسعار السلع الغذائية والجوامك في مصر عصر سلاطين المماليك الجراكسه، ط١، الرياض، ١٩٩٠، ص ٢٩

(١) المقريزي، السلوك،جـ٢، قسم ١، ص ٣٠٠.

(*) منفلوط، بفتح الميم وسكون النون، ثم فاء مفتوحة ولام مضمومة بلد في الصعيد في غربي النيل، بينها وبين شاطيء النيل بعد، ياقوت، معجم البلدان، مج ٥، ص ٢١٤.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم ٢، ص ٤٥٤.

(٣) ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٨، ص ٧٨-٧٩، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٠٢.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم ١، ص ٣٠٠.

(٥) المصدر نفسه، جـ٤، قسم ٢، ص ٧٦٦.

مصر، ومع ذلك فالأحوال متوقفة، والأسواق كاسدة، والمكاسب قليلة، والشكاية عامة، لا تكاد تجد أحداً الا يشكو سوء زمانه».[1]

وظلت الدودة تفعل فعلها في أرض مصر، ففي سنة (٨٥٥هـ-١٤٥١م) أكلت الدودة معظم مزروعات أرض مصر، وأخربته جميعه، وبلغ سعر فدان البرسيم عشرة دنانير، ولم يحصل الناس على التقاوي بسبب غلاء السعر، ولم يُترك من الزرع شيئاً بل أكلته كله، كما تفعل الأبقار ولم تدع فيه عوداً أخضر.[2]

وهكذا تبين لنا أثر القوارض في القضاء على الزروع، وارتفاع اسعارها، وقلة وجودها في الأسواق.

جـ- الطواعين

تعتبر مصر والشام من أخصب المناطق الزراعية، وكانت الحبوب من قمح وشعير تُنتج في الإقليم بشكل كبير، وعمد الاثرياء والتجار إلى إنشاء مخازن للحبوب، وكانت مرتعاً خصباً للحشرات وبيوضها، وكسر الخبز وبقاياه منتشرة في شرفات وساحات المنزل، فكانت تتجمع الجرذان بأعداد هائله، حيث كانت تتربص لها القطط.[3] ومن المعروف طبياً أن الطاعون هو مرضٌ وبائي ومعدٍ ينتقل إلى الانسان عن طريق الحيوانات القارضة ويُصيب الغدد الليمفاوية وخاصة غدد الفخذ وتحت الإبط والأذن.

وتشير الدراسات الحديثة إلى أن البكتريا المسببة للمرض هي المعروفة باسم Pasteurila Pestis وهي طُفيلي تعيش داخل القوارض والجرذان خاصة، وتصيب الانسان بالصدفة في دورة تطوره في هذه القوارض بواسطة برغوث الفئران، ويكون الاتصال المباشر بين هذه القوارض والانسان، عن طريق تلويث الطعام، وخاصة وصول الجرذان إلى مخازن القمح والأغذية الأخرى أن تحقن البراغيث الانسان بوضع برازها مكان العض.[4]

(١) المصدر نفسه، جـ ٤، قسم ١، ص ٤١١.

(٢) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ٢، ص ٢٣٨.

(3) Michael, w. Dols, Black Death in the middle east, new, Jeresy, P. 11.

(٤) عامر نجيب ناصر، الحياة الزراعية في مصر، ص ٧٩.

ويصف المؤرخون المرض بأنه «مرضٌ معروف وهو بثور ومؤلم جداً يخرج مع لهيب ويسوَد ما حوله، ويخضر ويحمرٌ حمرة بنفسجية كبيره، ويحصل معه خفقان بالقلب والقيء في المراق، والأباط غالباً وفي الأيدي والأصابع وساير الجسد.[1]

ويعتبر سوء التغذية وانعدام التوازن ما بين السكريات والبروتينات، وخاصة عند الطبقات الفقيرة عاملاً مساعداً في ظهور الطاعون،[2] وخاصة إذا ما علمنا أن البلاد قد واجهت أزمات إقتصاديه انعدم فيها الطعام المتوازن، وكيف لجأ الفقراء إلى اكل الزواحف والجثث.

وضربت الطواعين مصر والشام، لسنوات طويلة وكان غالباً ما يعقب وقوعه، حدوث المجاعات في البلاد، وعند إجتماعهما يؤدي ذلك إلى خللٍ واضح في جميع مناحي الحياة، وتخلخل الديمغرافيا ويموت فيه الكثير من العامة والخاصة على حدً سواء. مما يؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها.

ومن الجدوال المرفقه سيتضح لنا، تاريخ وقوع الطواعين وآثارها المادية العامة ونرى كل من مصر وبلاد الشام كُلاً على حدَه.

---

(١) الانصاري أبو يحيي زكريا بن فبد بن احمد (ت٩٢٦هـ/١٥١٩م) تحفة الراغبين في بيان امر الطواعين، ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية، رقم شريط ٣٤ ، ورقة (١٠٣–١١٢).

(٢) أشتور، إلياهو، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبله، مراجعة أحمد سبانو، دمشق، دار قتيبة ١٩٨٥، ص٣٠٤. وسيشار إليه لاحقا بـ اشتور التاريخ الاقتصادي.

الطواعين التي أصابت الشام

تاريخ حدوث المرض	البلاد التي ضربها	الآثار المادية للطاعون	الآثار العامة
٦٥٦هـ/١٢٥٨م[١]	الشام، حلب	أعداد كبيرة من المرضى صُلي في الجامع الأموي على واحد و ثلاثين ميتاً وكان ذلك وقت الظهره	اغتنى العطارون بسبب كثرة الطلب على مواد العطارة قل عدد الأطباء الموجودين
٧٤٠هـ/١٣٣٩م[٢]	الشام	مات فيه أعداد كبيره من السكان	
٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م[٣]	دمشق، الشام	مات في هذا الطاعون ما يقارب ثلاثه آلاف	-
٧٦٥هـ/١٣٦٣[٤]	الشام	-	
٨١٢هـ/١٤٠٩[٥]	حمص، طرابلس حماه	مات فيه ألوف الناس	-
٨١٣هـ/١٤١٠[٦]	الشام	مات في دمشق نحو خمسين الف انسان	أخلى القرى، ابقي الزروع قائمة لاتجد من يحصدها
٨١٩هـ/١٤١٦[٧]	مصر	مات فيه العديد من الأطفال والجواري والمماليك والعبيد	-

---

(١) اليونيني، ذيل المرآة، جـ١، ص ١٧٤.

(٢) ابن سباط، تاريخ، جـ٢، ص ٦٩١.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١،ص ١٤.

(٤) السخاوي، الذيل التام، جـ١، ص ١٩٥.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم ١، ص ٩٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٧٩، ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٧، ص ٨٠٧.

(٧) ابن حجر، انباء الغمر، جـ٧، ص ٢٠٦،ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٦، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص٣٦٨.

الآثار العامة	الآثار المادية للطاعون	البلاد التي ضربها	تاريخ حدوث المرض
-	مات به أناس كثيرن وأخلي الدور والقرى	الشام	٨٢٦هـ/١٤٢٢[١]
	مات به الكثير وأخلي الدور من سكانها	فلسطين	٨٣٣هـ/١٤٢٩[٢]
-	مات أعداد من الناس	الشام	٨٤١هـ/١٤٣٧م[٣]
-	فتك بأهلها وبلغ عدد الموتى زيادة على المائتي الف إنسان	حلب	٨٦٣هـ/١٤٥٨[٤]
-	أفنى الأطفال الشباب	بلاد الشام والقدس	٨٩٧هـ/١٤٩١[٥]
-	موت الأطفال والنساء	مصر	٦٩٤هـ/١٢٩٤[٦]
فنى ثلث سكان مصر	أخذ الناس يتساقطون في	مصر واعمالها	٦٩٥هـ/١٢٩٥ [٧]
جافت الطرقات والحارات والأزقه لم يجد الموتى من يدفنهم وكانوا يبقون في الشوارع دون دفن.	الشوارع صرعى رجالاً وأطفالاً ونساءً		
ارتفعت الأسعار، ونقص جميع ما يحتاج اليه المرضى، زاد الطلب على السكر وذلك لأهميته كعلاج للطاعون.	هلك فيه الناس والدواب	مصر	٧٠٩هـ/١٣٠٩م[٨]

(١) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ٢، ص ٦٣٢، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٢٠.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد حسن شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلميه بيروت ١٩٩٢، جـ١٦، ص ١٠٥، ١٠٨، ابن إياس بدائع الزهور، جـ ٢، ص٣٥٢.

(٥) العليمي، الحنبلي، الأنس الجليل، جـ ٢، ص ٣٦١.

(٦) ابن الفرات، تاريخ جـ ٩، ص ١٩٦، ١٩٧، العيني، عقد الجمان، جـ ٢، ص ١٢٠.

(٧) المقريزي، السلوك، جـ ١، قسم ٣، ص ٨١٤، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١ قسم ٢، ص ٣٨٩.

(٨) المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم ١، ص ١٦٠، ١٦١، ١٦٢.

الآثار العامة	الآثار المادية للطاعون	البلاد التي ضربها	تاريخ حدوث المرض
أخلى الطاعون معظم البلاد، انعدمت الصنائع، ارتفعت الاسعار، طعنت الحيوانات في البرية، مات في القاهرة في كل يوم فوق العشرين الف انسان	مات فيه نصف الناس، والطيور والوحوش الكلاب استمر لمدة سبع سنوات، قلت البضائع مات الفلاحين ولم يزرع من ارض مصر الا القليل	مصر وكان عاماً في جميع الممالك	٧٤٩هـ/١٣٤٨م(١)
-	انتشر الموت بين الناس	مصر	٧٦٢هـ/١٣٦٠م(٢)
-	كان يموت فيه في اليوم ثلاث ألاف انسان	القاهرة ومصر والوجه البحري	٧٦٤هـ/١٣٦٢م(٣)
-	-	مصر	٧٧٥هـ/١٣٧٣م(٤)
-	-	مصر	٧٧٦هـ/١٣٧٤م(٥)
-	-	الاسكندرية	٧٨٢هـ/١٣٨٠(٦)

---

(١) ابن دقماق، الجوهر الثمين، جـ٢، ص١٩٦، السخاوي، الذيل التام، ص ٩٨، ابن إياس بدائع الزهور، جـ١، ص٥٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٤، ص ٢٧٦، السخاوي، الذيل التام، ص ١٧٨.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم ١، ص ٨٢،٨١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١١، ص ٤١، السخاوي، الذيل التام، جـ ١، ص ١٩٥.

(٤) النويري، الاسكندري، الالمام، جـ٦، ص ٤٢٣/ ٤٢٤.

(٥) ابن حجر، انباء الغمر، جـ ١، ص ٩٣.

(٦) ابن حجر، انباء الغمر، جـ ٧، ص ١٠٣، ابن إياس بدائع الزهور، جـ٢، ص٦.

تاريخ حدوث المرض	البلاد التي ضربها	الآثار المادية للطاعون	الآثار العامة
٨٠٠هـ/١٣٩٧م[١]	مصر وأعمالها	ماتت أعداد كبيرة من الناس وأغلقت دور كثيرة	استمر لمدة ثلاث أشهر خلت معظم البلاد من سكانها، كان الأصحاء يقومون بنقل الأموات على الجمال، يتم رميهم في البحر. أو عن طريق حفر حفائر كبيرة يوضعون بها.
٨٠٨هـ/١٤٠٥م[٢]	صعيد مصر	بلغ عدد من مات به عشرة آلاف نفس	خلت عدة قرى من سكانها
٨٠٩هـ/١٤٠٦م[٣]	مصر	مات الكثير من الناس بلغ عدد الموتى في اليوم مائتان وخمسون شخصاً	-
٨٢٢هـ/١٤١٩م[٤]	الشرقيه والغربية	بلغ عدد الأموات فيه ما بين العشرين والثلاثين في كل يوم	كان الموت في الريف شديداً، أدى إلى خلو عدد من القرى من أهلها، كان من الطواعين الشديدة كان طاعوناً عاماً

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ ٣، قسم ٢، ص ٨٩١، ابن حجر، انباء الغمر، جـ٣، ص ٣٧٩، الصيرفي نزهة النفوس، جـ١، ص ٤١٢.

(٢) المقريزي، السلوك،جـ ٤، قسم ١، ص ١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٣،٤٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٨١، ٤٨٦، ٤٨٧، إبن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٥، ٤٦، ابن حجر، انباء الغمر، جـ٧، ص ٣٤٧.

تاريخ حدوث المرض	البلاد التي ضربها	الآثار المادية للطاعون	الآثار العامة
٨٢٣هـ/١٤٢٠م[١]	الاسكندرية	-	-
٨٣٢هـ/١٤٢٩[٢]	مصر، قبليها وبحريها	مات فيه من عامة أرض مصر، مائة ألف إنسان	سُمي هذا الطاعون بالفصل الكبير كان إذا دخل الدار أفناها من أهلها خالف غيره من الطواعين بأنه قع في وسط الشتاء وجد في النيل والبرك كثير من التماسيح والسمك وقد طفت على وجه الماء ميته، مات صيادي السمك فيه، وجد عدد من الضباء موتى.
٨٣٩هـ/١٤٣٥م[٣]	الصعيد	كان المرض قد جاء من بلاد اليمن، وأمات العديد من الناس	-
٨٤١هـ/١٤٣٧م[٤]	القاهرة		أثر في الناس كثيراً أصابهم النكد والبلاء وأصاب المماليك الطاعون

(١) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٧، ص ٣٨٠، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٢٥.

(٢) المقريزي، السلوك،جـ ٤ قسم ٢، ص ٨٢٥، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٦، ص١٢٨، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٢٠١.

Doles, Black Death, P.10.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ٢، ص ١٠٢٠.

(٤) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٢، ص ٤١٣.

تاريخ حدوث المرض	البلاد التي ضربها	الآثار المادية للطاعون	الآثار العامة
٨٤٢هـ/١٤٣٨م[1]	مصر والقاهرة	فني فيه العديد من الناس تجاوز	-
٨٤٨هـ/١٤٤٤[2]	القاهرة	عدد الموتي في كل يوم الألف إنسان	
٨٦٤هـ/١٤٥٩[3]	القاهرة	ماتت فيه أعداد كبيرة من الناس	بقي في القاهرة ما يقارب الستة أشهر وكان عاماً قاسياً على الجميع، أصبح الناس يحسبون حساب الموت، إجتمع على الناس فيه ثلاث أمور وهي الطاعون، والظلم والغلاء.
٨٧٣هـ/١٤٦٨[4]	مصر والقاهرة والاسكندرية	تزايد موت الناس وأصبحوا يموتون في الطرقات، مات به معظم اهل الاسكندرية	عُملت المغاسل العامة، حُمل إليها الموتي، وخاف الناس من أنباء الموت فجأة خوفاً شديداً، وأصبح الرجل والمرأة يكتبون اوراقا تحمل اسمائهم وكُناهم واسماء حاراتهم وسكنهم حتى إذا ماتوا يُعرف بهم.

---

(١) ابن حجر، انباء الغمر، جـ٩، ص ٧١.

(٢) ابن تغري بردي،حوادث الدهور، جـ١، ص ٢٠٢، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٧٢، السخاوي، التبر المسبوك، ص ٢٥٣، ٢٥٤.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ١٢١/ ١٢٠.

(٤) البصروي، تاريخ، ص ٣٨، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٢٦/١٢٥، الصيرفي، أنباء الهصر، ص ٦٠/٦١.

تاريخ حدوث المرض	البلاد التي ضربها	الآثار المادية للطاعون	الآثار العامة
٨٨١هـ/١٤٧٦(١)	في مصر في دولة الأشرف قايتباي وهو الثاني الذي يحدث في دولته	بلغ عدد الموتى نحواً من مئتي ألف، مات به كثير من العلماء الأكابر	أخلى الدور من أهلها وساكنيها
٩٠٣هـ/١٤٩٧(٢)	مصر	–	–
٩١٩هـ/١٥١٣(٣)	مصر	كان الطاعون شديداً، وكل من ماتت له بنت عروس يضع على نعشها شربوش الحليُ مع الطرحات	–

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ١٢٢،١٢٣.

(٢) البصروي، تاريخ، ص ٢٢.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ٣٠٤.

مما سبق ندرك أن الطواعين قد لعبت دوراً كبيراً في تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد، فقد ضربت مصر وبلاد الشام لسنوات عديدة، وكان هناك أسباب عديدة لحدوثها. ففي طاعون (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)والذي عم جميع الممالك وأنتشر في مصر، وكان أن أصيبت به الاسكندرية وكانت اولى المدن التي يصلها، ويمكن القول أنه وصل إليها عن طريق التجارة، وخاصة إذا ما علمنا إنها ميناء تجاري هام تاتي إليها السفن من انحاء مختلفة، ويمكن ان يكون بحارة هذه السفن مصابين بالمرض فينتقل منهم حين وصولهم إلى الميناء[1] وكان المؤرخون العرب يعزون سبب حدوث الطاعون إلى الشراقي[*] التي وقعت بمصر بسبب نقص النيل.[1]

وقد يحدث الطاعون أيضاً لكثرة المستنقعات[2] التي قد يخلفها النيل بعد فيضانه، حيث يؤدي وجود مثل هذه المستنقعات إلى تكاثر الحشرات من ذباب وغيرها وبالتالي يؤدي إلى حدوث الأمراض.

وكثيراً ما تعرضت الاسكندرية إلى وقوع الطاعون فيها، فبالاضافة إلى موقعها كميناء، يمكن ان تصل الأمراض اليها عن طريقة، يعتبر القلصادي الاسكندرية. كثيرة الأمراض، خلت من العمارة، يتميز أهلها بصُفرة في وجوههم يقول في ذلك «وإذا مرّ على الانسان فيها يوم أو يومان يشعر بالضعف والنقص في بدنه وذلك بسبب مائها».[3]

أما الشام فقد كان سبب حدوث الطاعون فيها وخاصةً دمشق بكثرة تراكم الأوساخ التي في مقاسم المياه، والتي تتخلل الدور، مما يؤدي إلى حدوث العفونات بذلك ويحدث الوباء، وعندما قام تنكز بولاية الشام، أمر بتظيف الأوساخ، ولما

---

(1) Doles, Black Death. P.9.

(*) الشراقي، عبارة عما لم يصل إليه الماء، إما لقصور النيل أو علو الأرض وإما لسد طريق المياه، إبن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٢٣.

(١) إبن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ٥٢٢.

(٢) إبن كثير، البداية النهاية، جـ١٤، ص ٢٧٦، السخاوي، الذيل التام، ص ١٧٨.

(٣) القلصادي، ابو الحسن علي (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م) رحلة القلصادي تحقيق محمد ابو الاجفان، الشركة التونسية للتوزيع، ص ١٢٥.

فعل ذلك قلت الأمراض التي تصيبهم.[1]

وقد مات في هذه الطواعين التي ضربت المنطقة خلق كثير، مما أدى إلى إختلال في التوزيع السكاني، بحيث أن الطاعون كان يقضي على أهل الدار كلهم إذا ما دخل إليها، وقيل في ذلك شعراً : (السريع)

قد نفض الطاعون بين الورى وأهلك الولد والوالـــــدة)[2]

كم منزل كالشمع سكانه أطفأهم في نفخة واحدة

وكان الطاعون يقضي على سكان القرية كاملة إذا ما دخلها، حيث يؤدي إلى تعطل عملية الزراعة، مما يسبب إرتفاعاً في أسعار البضائع والغلال وذلك لكثرة الطلب عليها وقلة عرضها في الأسواق.

وقضى الطاعون على العديد من الأطفال، وهو بدوره يؤدي إلى حدوث خلل في التركيب العمري للسكان، بالإضافة إلى الأعباء الإقتصادية التي ستتحملها الدولة، فقد كان يموت في الطواعين المختلفة المماليك والعلماء والفقهاء.

حيث تضطر الدولة إلى تعويض مثل هؤلاء المماليك والفقهاء، وأن تحل غيرهم في أماكن عملهم.

وترتب على تكرار وقوع الطواعين آثار اقتصادية غاية في الأهمية، حيث تؤدي إلى كساد في عملية البيع والشراء واغلاق للاسواق، وتنعدم سائر الصناعات في المجتمع وخاصة صناعات الترف، وذلك لان الصناعات تزدهر إذا كثر طالبها فإذا ضعفت الأحوال، وفتكت الأمراض بالناس، وضعفت الدولة وتناقصت الصناعات، تقتصر الناس على الضروريات فتقل الصناعات [3] وتزهد الناس، فيتعطل الاقتصاد وينهار نتيجة لذلك. أما البضائع التي تروج في مثل هذه،

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنه في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، ط٢، ١٩٦٦، جـ٢، ص ٥٩.

(٢) إبن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٣١، ١٣٢.

(٣) إبن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) العبر وديوان المبتداء والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨١، مج ١، جـ٢، ٧١٩.

الأوقات فهي ما يحتاج اليه الموتى من قطن وسدر وكافور بالإضافة إلى الاكفان، ويعلق المقريزي على ذلك بقوله «أما الأكفانية فحالهم في رواج لشدة الموت». [1]

ولقد تأثرت البيئة نتيجة للطواعين المتكرره، فانتشار الجثث وكثرة وجودها في الشوراع لعدة ايام يؤدي إلى حدوث العفونات فيها، بالاضافة إلى انتشار الروائح الكريهة وانتشار الذباب، ففي طاعون (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) كانت أعداد الموتي كثيرة «وحصلت رائحة في بعض القرى لكثرة الموتى». [2]

ويمكن القول ان الحياة الاجتماعية في مصر وبلاد الشام، قد إختلت نتيجة لهذه الطواعين المتكررة، فاغتنى جماعة من الناس مثل العطارين والأطباء والحفارين والغسّال والقراء، وذلك لكثرة الطلب عليهم [3] من قبل الناس وراجت أحوالهم، ونتيجة لكثرة موت الأطفال البنات والعبيد والإماء فقد كبار رجال الدولة وأعيانهم الخدّام، وأصبحوا يخدمون أنفسهم بأنفسهم. [4]

د- الزلازل [5]

اذا كانت الجغرافيا تؤثر في التاريخ، فان الكوارث الطبيعية هي الاخرى لعبت دوراً بارزاً في التاريخ الحضاري والاجتماعي لكل من مصر والشام في عصر سلاطين المماليك، وأثرت في جميع النواحي الخاصة بحياة السكان، والمصادر التاريخية، تورد في العديد من رواياتها أخبار الكوارث التي أدت إلى تغير اجتماعي واقتصادي في الدولة المملوكية.

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٤ قسم ٢، ص١٠٤٣.

(٢) الطبّاخي، محمد راغب الحلبي، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، دار القلم العربي حلب، د.ط، جـ٣، ص٤١. وسيشار إليه لاحقاً بـالطباخي، أعلام النبلاء.

(٣) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص٤١٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٤١٩.

(٥) الزلزلة «هي من مادة زلزل وتعني الحركة وهي البلايا، وتحدث نتيجة لحركة عنيفة في باطن الأرض، تؤدي بالتالي الى حدوث الدمار على سطحها». الفيروز ابادي مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/١٤١٤م) القاموس المحيط، دار الفكر المؤسسة العربية للطباعة والنشر، د.ط، جـ٣، ص٣٨٩-٣٩٠.

فقد ضربت الزلازل [1] المنطقة وأثرت فيها تأثيراً عظيماً، وعند تتبعنا لهذه الزلازل منذ بداية العهد المملوكي، نجد انها ضربت المنطقة مراراً وتكرار وقد بلغ عدد هذه الزلازل طيلة العهد المملوكي «أربعة وثلاثين زلزالاً »[2] تراوحت شدتها ما بين خفيفه أو عظيمة أو مهولة نتج عنها أثار اقتصادية وإجتماعية اثرت فيما بعد على المنطقة وكانت سبباً لوقوع المجاعة. ومن الجداول التالية، نستطيع التعرف على الزلازل وأثرها في المنطقة.

---

(١) عن أسباب حدوث الزلزلة وتفسير نشأتها، انظر، السيوطي كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق محمد كمال عز الدين، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٢. وسيشار إليه لاحقا بـ السيوطي كشف الصلصلة.

(٢) اعتبر العديد من المؤرخين والعلماء ان الزلازل انما هي بلاءُ وامتحان من الله، بسبب مخالفة الناس لتعاليمه انظر : العمادي؛ حامد بن علي (ت١١٧١هـ) رسالة الحوقلة في الزلزلة، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، ميكروفلم رقم٧٥، عن نسخة برنستون، رقم ٢٠٨٥، ورقة ٣٤.

تاريخ الزلزلة	درجتها	المدن والقرى التي ضربتها	الآثار المادية للزلزلة	الآثار النفسية للزلزلة
٦٦٠هـ/١٢٦١م[1]	زلزلة شديدة	الشام، الكرك، صفد،الشوبك	تساقط الجبال، تقطع الصخور إغراق قماش القصارين أضرار في القوارب والسفن ومنارات الجوامع	هروب الناس إلى الصحراء
٦٩٢هـ/١٢٩٢م[2]	زلزلة عظيمة	الرملة، اللد، غزة، الكرك	انهدام ثلاث أبراج من قلعة الكرك	-
٦٩٢هـ/١٢٩٢[3]	-	الشام	انهدام أسوار قلعة حماة	-
٧٠٢هـ/١٣٠٢م[4]	عظيمة	صفد، عكا، دمشق	تشقق جدران جامع بني أمية	-

(١) القلقشندي، ابو العباس، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) مآثر الإنافة في معالم الخلافة تحقيق عبد الستار فرّاج، بيروت، عالم الكتب د.ت، جـ٢ ص١١٤ وسيشار إليه فيما بعد، بالقلقشندي مآثر الإنافة.

(٢) السيوطي، كشف الصلصله، ص.٥.

(٣) ابن الوردي، تتمة المختصر، ٢، ص.٣٦.

(٤) العجلوني الجراحي، تحريك السلسة بما يتعلق بالزلزلة، شريط ميكروفلم رقم ١٩ مركز المخطوطات والوثائق، الجامعة الأردنية، ورقة ١٢٦أ. وسيشار إليه لاحقاً بالعجلوني الجراحي، تحريك السلسة، النويري، الالمام، جـ٦، ص ١٢٤.

تاريخ الزلزلة	درجتها	المدن والقرى التي ضربتها	الآثار المادية للزلزلة	الآثار النفسية للزلزلة
٧١٧هـ/١٣١٧م	-	بعلبك	تهدم البيوت والحوانيت	-
٧٢٢هـ/١٣٢٢م	زلزلة عظيمة	طرابلس الشام	غرق المراكب وتهدم الجوامع	موت أناس كثيرن
٧٣٩هـ/١٣٣٨م	-	طرابلس الشام	-	-
٧٤١هـ/١٣٤٠م	زلزلة عظيمة	دمشق، حلب	تهدم اماكن كثيرة في حلب، سقوط بعض ابراج القلعة	هلاك معظم سكان منبج
٧٦٨هـ/١٣٦٦م(١)	هائلة	صفد	-	-
٨٠٦هـ/١٤٠٣م(٢)	عظيمة	حلب، اللاذقية، بلاطنس جبله	أخربت الدور والابراج، أخربت الجهة الغربية من حلب	
٨٠٧هـ/١٤٠٤م(٣)	عظيمة	حلب		
٨١١هـ/١٤٠٨م(٤)	عظيمة	حلب، طرابلس، اللاذقية، بلاطنس	سقوط قلعة بلاطنس وخراب المدن	-

---

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، جـ٢، ص٢٧٣.

(٢) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٥، ص ٢١٧.

(٣) العجلوني تحريك السلسة، ورقة ١٧.

(٤) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب. جـ٧، ص٨٩

تاريخ الزلزلة	درجتها	المدن والقرى التي ضربتها	الآثار المادية للزلزلة	الآثار النفسية للزلزلة
٨٦٣هـ/١٤٥٨م[1]	مهولة	الكرك، القدس، الجليل	خربت فيها الدور وقلعة الكرك، وابراجها واسوارها، وقعت فيها عدة دور.	مات فيها مئة انسان
٨٨٩هـ/١٤٨٤م[2]	شديدة	حلب	-	-
٦٧٢هـ/١٢٧٣م[3]	-	مصر	خراب أسوار الاسكندرية انفصال بعض أعمدة جامع عمر بن العاص عن بعضها البعض تساقط الدور	موت أناس كثيرون في مصر
٧٠١هـ/١٣٠١م[4]	-	مصر، الاسكندرية		موت كثير من الناس.
٧٠٢هـ/١٣٠٢م[5]	عظيمة	مصر، القاهرة، ثغر الاسكندرية	انهدام الاسوار والابراج بعض اجزاء منارة الاسكندرية خراب الجوامع مثل الجامع الحاكمي، تهدم المدارس خراب جامع عمر بن العاص خراب الجامع الأزهر.	هلك تحت الردم أناس كثيرون

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١٦،ص ١٠٢، السيوطي كشف الصلصلة، ص ٢٠٩، العمادي رسالة الحوقلة، ورقة ٣٤.

(٢) السيوطي، كشف الصلصلة، ص٢١٠.

(٣) ابن الوردي، تتمة المختصر، جـ٢، ص ٣٦٠.

(٤) النويري، الالمام، جـ٦، ص ١٢٤.

(٥) السيوطي، كشف الصلصة، ص ٢٠٤.

ويستدل من جدول الزلازل الذي أثبتناها الأمور التالية :

للزلازل آثار كبيرة على النواحي العمرانية، حيث دمرت العديد من الأماكن، من مباني وقصور، وزوال للمدراس وإنهدام لمنارات الجوامع، وتساقط للدور وتهدم، للجدران، حيث ادى كل هذا إلى تأثيرات ماليه عظيمة على الافراد لاعادة بناء ما تهدم من بيوتهم، وعلى الدولة، والتي اخذت تعيد بناء ما تهدم من مدارس وجوامع وغيرها ونتيجة لكثرة الطلب على مواد العمارة، ان ارتفعت اسعارها.[1]

وكان المماليك كثيراً ما يأمرون النواب باعادة بناء ما تهدم من الأماكن العمرانية، وخاصةً القلاع العسكرية، حيث خرج ايدغذي الشجاعي لعمارة ما تهدم من ابراج قلعة الكرك.[2]

وأما الاثار المادية للزلازل، فقد خسر الناس الكثير من أموالهم، وسقط الكثير من الضحايا، وانعكس هذا على المظهر العام للأرض من تضاريس، وغيرها أو ابداع شعري أو ادبي، وكانت الاثار النفسية للناس شديدة، حيث أخذ الناس بالهرب إلى الصحراء،[3] وذلك لاعتقادهم بإنها مكان آمن وكان صراخ الناس في الطرقات شديداً ومن شدة الخوف كثيراً ما كانت النسوة يضعن أحمالهن.[4]

ونتج عن هذه الزلازل إبادة قرى أو بلدان بأكملها، ذهب ضحيتها آلاف البشر، حيث تُحدث مثل هذه الظواهر تغيرات جوهريه في تركيب السكان واعادة توزيعهم، وينتج في غالب الأحيان هجرات جماعية من وإلى الأماكن المنكوبة.

وكثيرا ما ترك الناس أموالهم وراءهم اثناء الهرب، مما يؤدي إلى انتشار السرقة في البلاد التي تحدث بها مثل هذه الظاهرة، ومما يلفت النظر قيام الناس

---

(١) العيني، عقد الجمان، جـ٢، ص٢٦، السيوطي، كشف الصلصة ص ٢٠٤، عبد الله الغنيم، الحلقة الدراسيه العربية الثالثة للعلوم الزلزاليه أسباب الزالزل وأحداثها في التراث العربي، دراسة جغرافية، مرصد الزلازل الجيوفيزيائي، جامعة الملك سعود ١٩٨٨، ص٦٦، نقلاً عن المقريزي. وسيشار إليه لاحقا بـ عبد الله الغنيم الحلقة الدراسية.

(٢) المقريزي، السلوك جـ١، قسم٣، ص ٧٨٣.

(٣) القلقشندي، مآثر الانافة، ص١١٤.

(٤) عبد الله الغنيم، الحلقة الدراسية، ص ٦٥.

ببناء بيوت من الخشب يقيمون بها بعد الزلازل العنيفة، وذلك لكي تكون الأضرار اخف فيما لو تكررت مثل تلك الظاهرة.[1]

وكان يصاحب هذه الزلازل الأوبئة وخاصة الطاعون، ويعود سبب ذلك إلى تعفن جثث الموتى تحت الانقاض، حيث يؤثر ذلك على الصحة العامة والكثافة السكانية.[2]

ومن اثارها ايضا التغيرات الكثيرة التي تنشاء على سطح الارض نتيجة للزلازل من نضوب لعيون الماء، أو توقفها عن التدفق لفترة من الزمن أو قد تتفجر العيون كما حدث في زلازل (٦٦٠هـ/١٢٦٠م) في بلاد الشام والعراق.[3]

ويتعرض الجبال للتصدع والانهيار وتتمثل الانهيارات فيما حدث في سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م) في الزلزلة التي ضربت مصر والشام، حيث تساقطت الجبال وتقطعت الصخور.[4]

وتتسبب الزلازل البحرية في العديد من الكوارث، حيث يغرق العديد من السفن ويؤدي انحسار مياه البحر إلى هلاك الناس، وكثيراً ما أدى هيجان البحر وخاصة في الاسكندرية إلى تهدم ابراج منارتها، وغرق قماش القصارين فيها، بالإضافة إلى غرق الكثير من البضائع. واحداث الأضرار في السفن والمراكب مثلما حدث في زلازل (٧٠٢هـ/١٣٠٣م) وفي زلازل (٧٤١هـ/ ١٣٤١م).[5]

وتعتبر الزلازل من العوامل التي تشجع الأعداء على إنتهاز فرصة تهدم الأسوار والقلاع، وانشغال الناس بما هم فيه، للاغارة على البلاد، لذلك كثيراً ما نرى اهتمام السلاطين باعادة بناء القلاع وترميمها عقب الزلازل التي تحدث في المنطقة، وذلك من أجل تفويت مثل هذه الفرص على العدو.

---

(١) عبد الله الغنيم، الحلقة الدراسية، ص٨٤.

(٢) غوانمه، يوسف، الزلازل في بلاد الشام في العصر الاسلامي واثرها على المعالم العمرانية، دار الفكر للنشر والتوزيع د.ط، ١٩٩٠، ص٦٣.

(٣) عبد الله الغنيم، الحلقة الدراسية نقلاً عن الكرجي، محمد بن الحسن إنباط المياه الخفيه، ص ٨٣.

(٤) القلقشندي، مآثر الانافة، ص ١١٤.

(٥) عبد الله الغنيم، الحلقة الدراسية، ص ٨٦-٨٧.

وقد اثرت هذه الكوارث على طبيعية الانتاج، وأصابت البنية التحتية في المدن والقرى التي أصابتها، وتطلبت المزيد من الانفاق لاعادة اعمارها. وهي بلا شك تؤدي إلى نقص في المواد الغذائية والحاجات الأساسية للمجتمع.

ثانيا : العوامل البشرية للمجاعات

أ- فساد العربان

عاثت العربان فساداً في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، وكانوا سببا في حدوث الخلل والدمار في الديار المصريه، فقد كانت العربان في البداية، أهل زرع وفلاحه مطيعين للولاة والعمال.

ولكنه عندما وقع اهمال للأراضي الزراعية، خربت هذه الأراضي وأصبحت الأرض بيد من له القوه والمال، مما أدى إلى اجتماع أهل البادية واتفقوا على الخروج، وقد اضر بهم الخراب الذي حدث فلجأوا إلى عمليات القتل والنهب والسلب.[1]

وكان ان ظهر في العصر المملوكي منصباً خاصاً بالعربان، أُطلق عليه منصب امراء العرب، وكان يتمتع هؤلاء الأمراء، بالارزاق والاقطاعات الهائلة وذلك ارضاء لهم من أجل رفع أذيتهم عن المسلمين، وكانوا سيء الأخلاق، بحيث إذا أقطع السلطان أحدهم اقطاعاً، تسلط على الناس، وقطع الطرقات، وأخذ الأموال وسفك الدماء.[2]

وأصبحت العربان الشاغل الرئيسي للمماليك الذين ما فتئوا يجردون الحملات للقضاء على الاعراب وفتنهم، وكانت مثل هذه المعارك تدور في الأراضي

---

(١) الأسدي، محمد بن محمد بن خليل. (..٩هـ/١٤٩٤م) من أعيان القرن ٩هـ التيسير والاعتبار. والتحرير والاختيار. فيما يجب من حُسن التدبير والتصرف والاختيار. تحقيق عبد القادر محمد طمليات، دار الفكر العربي، ١٩٦٧، ص ٩٧، وسيشار اليه لاحقا بالاسدي التيسير والاعتبار.

(٢) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، ابو زيد شلبي، ط ١، القاهرة ١٩٩٣، ص ٥٤. وسيشار اليه لاحقاً بـ السبكي مفيد النعم.

الزراعية، مما يؤدي إلى اتلاف المزروعات في الميادين التي تدور فيها رحى تلك المعارك.[١]

وكان الفساد مستشرياً في الاقليم بأكمله ففي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) ثارت العشران، وهم البدو المشتغلون بالزراعة، ونهبت مدينة نابلس مما حدا بالامير «علاء الدين ايدكين الفخري» إلى القبض على جماعة منهم وشنق اكابرهم، وسجن غيرهم.[٢] وقد تعرضت للشلل معظم طرق فلسطين وجنوب سوريا بسبب البدو، وكانوا يقطعون الطرق على القوافل والمسافرين بين مصر وفلسطين، ولم تسر قوافل الحج من فلسطين إلى مكة ولمدة عشر سنوات سوى في سنه (٩١٤هـ/١٥٠٨م) بسبب الطرق غير الآمنه، إلا بعد موافقة البدو على ارسال حماية مع القافلة حتى حدود خليج ايلات، وقد فقدت دولة المماليك هيبتها بسبب عدم قدرتها على حماية قوافل الحجاج ففي حوادث سنة (٩٠٠هـ/١٤٩٤م) هاجم البدو قافلة قادمة من سوريا ونهبوا ما فيها، وقتل عدد غير محدود من الأطفال النساء.[٣]

وكثيراً ما استغل البدو، ضعف الحكومة المركزية، فهاجموا موظفيها ففي سنة (٨٨٤هـ/١٤٨٠م) هاجم بعض البدو في جوار القدس المدينة في وضح النهار، وهرب حاكم المدينة لا يحمل شيئاً وأغلقت الأسواق، ولم يغادر السكان منازلهم، وأصبحت الطرق التي حول المدينة تحت سيطرة البدو. واخضعوا سكان المدينة لضرائب خاصة عرفت بواسطة السكان المحلين بـ(مسلماً) أو (خاوة).

وكان البدو يشجعون المماليك الذين كانوا على خلاف ونزاع دائم على قتال بعضهم البعض ويمدونهم بقوات عسكرية[٤] مما أدى إلى ازدياد نفوذ هؤلاء البدو، وتاثيرهم على الطرق التجارية واقتحامهم لميدان السياسة في الدولة المملوكية.

---

(١) ابن طولون، نقد الطالب لزغل المناصب تحقيق محمد احمد دهمان وخالد محمد دهمان، دار الفكر . بيروت- لبنان، ١٩٩٢، ص ٨٥. وسيشار اليه لاحقا بابن طولون، نقد الطالب.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ١، قسم٢، ص ٦٩٩.

(3) Moshe Sharoun. The political Role of the Bedouins in Palestine in the sixtenth and seventeenth centuries. Studies in Islamic History and civlization E.J. Brll - Leiden - 1986-P. 113-70.

(4) Moshe Sharon, The Political Role, P. (13-14).

وفي بلاد الشام كانت فتن العربان لا تنته، حيث خرب الاقليم وسُفكت الدماء ونُهبت الأموال، ويصف الأسدي، حال الشام بقوله «وأما ما حدث من الحوادث في البلاد الشاميه. فإنتشار الشرور والفتن بين القيس واليمن، ووقوع الحرب والقتال فيما بينهم، والسبب في ذلك تغير العوايد من بطائن السوء، والتدليس على الملوك والحكام وولاة الامور بالاغراء والتسلط على الفلاحين بالظلم، والميل مع القوي، وإنهاك الضعيف مع تغير العوائد وقع الاغراء فيما بينهم والشرور والتحاسد، واضطر كثير من أهل الزرع إلى التمرد والعصيان والتشرد عن الاوطان وتسلطت العربان والعشران على الاراضي والبلدان وعظمت الفتن وصار اهل الزرع والرفع من الفلاحين على صهوات الخيل مارقين» [1] مما ادى إلى خراب الشام، وصارت البلدان والقرى خراباً، لا يوجد بها اي انسان، وصار الحكم فيها لمقدمي الفلاحين ورؤساء العربان.

واستمرت ثورات العربان وفتنهم، وقطعوا الطرقات، وأخافوا الناس ففي حوادث (٧٥٩هـ/١٣٥٧م) ثاروا في حوارن، وتفاقم امرهم وكثرت فتنهم في نابلس، وانقطعت الناس عن الاسفار خوفاً من القتل والنهب[2] واقتتل الفلاحون في نواحي مدينة عجلون، وخربت القرى التي في عجلون وحدث فيها الخراب والدمار وقطع الأشجار.[3] وهاجموا دمشق ونهبوا غلاتها وخربت أكثر البلاد [4] نتيجة لهذه الأحوال واقتتل أمراء العرب مع بعضهم البعض، ورعت الخيل الكروم وكانت الفتن تقع بين العربان انفسهم، حيث يقومون بنهب الضياع، واحراق جرون الغلال. [5] ففي سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م) قطعوا الطريق ودخلوا إلى مدينتي اسيوط، ومنفلوط وقسموا التجار، واخذوا منهم المال، ومنعوا الجنود والأمراء من الحصول على الغلات المخصصة لهم، وهاجمـــوا السجون، وقاموا باخراج اللصوص والمفسدين

---

(١) الأسدي، التيسير والاعتبار، ص ٩١.

(٢) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٦، ص ٢٣١، السخاوي، الذيل التام، ص ١٦٣.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤، ص ٢٨٩، ابن الوردي، تتمة المختصر، جـ٢، ص ٣٠٥.

(٤) ابن طولون، مفاكهة الخلان، جـ١، ص ٢٤٥.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١ص ٥٧،

منها. [1] وكان هؤلاء العربان يمنعون الخراج فارسُلت اليهم التجاريد واخرجوهم وقتلوا جماعة منهم، وأخذوا الخيول الخاصة بالفلاحين والبدو والقضاة، واستولوا على السلاح الموجود في المنطقة والجمال، مما اجبر الفلاحين في نهاية المطاف إلى الخضوع ودفع الخراج.[2]

وقد خرجت العربان عن الطاعة واظهروا العصيان وكانوا تحت قيادة زعيم يلقب بالاحدب، حيث اغاروا على قرى الصعيد، ونهبوا الزروع وأخذوها قهراً من الفلاحين، وعجز عنهم الولاة، حتى خرج اليهم السلطان بنفسه، فقاتلهم واخذ منهم السلاح والخيول، واسر العديد من الفلاحين ومنعوا من ركوب الخيل وحمل السلاح، والعودةالى الزراعة.[3]

وبقيت العربان تعيث في البلاد فساداً، فقد هاجموا مدينة دمنهور في سنة (٧٨٢هـ/١٣٨٠م) حيث خرّبوا الاسواق، وقتلوا الأهالي فيها، [4] وفي ذي الحجة من السنه نفسها، تحالفت قبائل العربان، واتفقوا على التمرد والعصيان والخروج عن الطاعة، وقاموا بنهب الغلات، فجهز لهم الاتابكي برقوق جيشا يقدر بـ خمسمائة مملوك، التقوا مع بعضهم البعض، فأنهزم المماليك وقتل جماعة منهم. [5] وفي سنة (٧٨٥هـ/١٣٨٣م) أفسدت العربان ونهبت مدينة الفيوم ونواحيها، وعُزل أمير العرب نعير بن حيار بن مهنا – عن أمرة العرب، وصودرت امواله، ووجد له من الاموال الشيء الكثير ومن البعير ثلاثين الفاً ومن البسط ما لايستطيع الجمل حملة «فكان هذا من أعظم الفساد في الدولة»[6].

---

(١) المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٦٢، المقريزي، السلوك، جـ ١، قسم ٣، ص ٩٢٠، العيني، عقد الجمان، جـ ٤، ص ١٧٤

(٢) المقريزي، السلوك، جـ ١، قسم ٣، ص ٩١٤–٩١٥.

(٣) ابن خلدون، تاريخ، جـ ٥، ص ٥٣٤، ٥٣٥. ابن دقماق، الجوهر الثمين، جـ٢، ص ٢٠٣ السخاوي، الذيل التام، ص١٢٣.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، قسم٢، ص ٢٦٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

(٦) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٣، ص ٧٦.

وكان الخلاف على إمرة العرب كثيراً ما يؤدي إلى حدوث القتال بين العربان فعندما يصرف أحد أمراء العرب عن المنصب، يحدث القتال بين الأمير الذي صرف والأمير الذي استقر بها، حيث يقومون بنهب المحاصيل، والبضائع والجمال والاغنام.[1] وكلما هاجمت العربان، المناطق تخرج اليهم الجيوش المرة تلو الاخرى، ويحدث نتيجة لذلك الفساد في المزروعات، وينعدم الأمن في الطرقات، ولا تكون المحاصيل كما كانت في ايام الأمن والرخاء.[2] ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كانوا يهاجمون الحجاج وينهبوا الاقامات المرسلة اليهم إلى العقبة ويقتلوا حراسها مما حدا بالسلطان لاخراج التجاريد لقتالهم.[3]

هذا وقد استمر اذى العربان إلى القرن العاشر، فقد وقعت بينهم الفتن، وتسلطوا على المزروعات، واحرقوا القمح والشعير وهو في الجرون، ونهبت العديد من القرى مما أدى إلى حدوث الغلاء، ووصل الأردب القمح إلى الف درهم، وبقيت الأمور على ما هي عليه لمدة طويلة، وكانت غاية في الفساد.[4] حيث اضطربت أحول البلاد وارتفعت أسعار جميع البضائع، والغلال، وافسدوا المزروعات ونهبوا المحاصيل.[5] ولم توجد المواشي والابقار، واخذوا مجوهرات النساء، وقتلوا العديد من الفلاحين ولم يعد المسافرون يمرون في الطرق، لانعدام الأمن.[6]

مما سبق نستنتج الدور الذي لعبه العربان في عهد المماليك، حيث كان القتل والنهب والسلب كثيراً ما يؤدي إلى خراب الأراضي الزراعية، وارتفاع الأسعار وتكليف الدولة الأموال الطائلة للتجاريد التي كانت كثيراً ما تخرج لمقاتلة العربان الثائرين، واختل حبل الامن في الطرقات، مما أدى إلى حدوث الغلاء والفساد في البلاد.

---

(١) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٧، ص ١٨٩-١٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٥.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ٤٥١.

(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٣٧٠.

(٥) ابن طولون، اعلام الورى، جـ١، ص ١٥٥.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٩٩، جـ٥، ص ٨١، ٨٢.

وبسبب اختلال السياسة الداخلية للدولة ظهر الكثير من الفساد، الذي تمثل في عمليات السلب والنهب والسرقات، التي كان يقوم بها الحرامية، أو ما يطلق عليهم اسم «المنسر» فقد كانوا يقومون بالهجوم على الأفراد والأسواق والحوانيت، ويأخذون الغلال والأموال والأقمشة حيث أدى ذلك إلى الفوضى والاضطراب الداخلي.

فقد كثر قيام الزعر واوباش الترك، بنهب بيوت الناس، ونهب زرائب الفلاحين، والجمال. [1] ولمعاقبة مثل هؤلاء كان المماليك يقومون بتسمير قطاع الطريق، [2] وتذكر حوادث سنة (٨٢٠هـ/ ١٤١٧) قيام الحرامية بمهاجمة القاهرة من باب الجامع الأزهر ونهبوا عدة حوانيت، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه إلى القتل، وكان هذا من الفضائح. [3] وهاجم السرّاق سوق التجار بالأسلحة وأخذوا أموالهم [4] هاجموا سوق باب الشعرية، وقتلوا البواب واقتحموا الدكاكين واخذوا ما فيها [5] في سنة (٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) هاجم الحرامية سوق التجار بجامع ابن طولون وكسروا عدة دكاكين، واخذوا القماش الموجود فيها، حيث خسرها اصحابها.[6]

ومن الاسواق التي هاجمها اللصوص ايضاً، سوق الجملون، وسوق الخشبية والوراقين، ونهبوا نحو عشرين دكاناً، ولم تنتطح في ذلك شاتان، وذهب للتجار الاموال الكثيرة، وتعطلت الأسواق من البيع والشراء،[7] كما هاجموا اسواق الوراقين والهرامزه، ونهبوا ما فيها، وقتلوا الخفراء فيها، وكان اللصوص نحواً

---

(١) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٤، ص ١٠٩/ ١١٠.

(٢) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٩٨.

(٣) القريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ١، ص ٤٣٠، ابن حجر، انباء الغمر، جـ ٧، ص ٢٨٠، البصروي، تاريخ، ص ١٤١.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٢٩.

(٥) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٣٥٢

(٦) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٣١٩

(٧) ابن اياس بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٠.

من مائة شخص ما بين مشاة وركاب ومعهم قِسّي ونشاب، فنهبوا القماش وكانت من الوقائع المهولة.[1]

ونتيجة لكثرة السراق وقطاع الطرق إختلت كثيراً من الاوقاف في القدس والخليل[2] وذلك لكثرة مهاجمتهم لها.

وهكذا نجد ان المنسر قد لعبوا دوراً في اختلال الأمن، وارتفاع الاسعار في العصر المملوكي، وكانوا سبباً في المزيد من التدهور الاقتصادي الذي شهدته المنطقة.

ب- ثورات المماليك وتزايد نفوذهم

امتاز عصر المماليك بالصراع فيما بينهم على السلطة، وقد اثاروا العديد من الفتن التي كبدت الدولة الكثير من الأموال بسبب التجاريد التي كانت ترسلها للقضاء على الفتن والمنازعات التي يثيرونها فيما بينهم، حيث تتحول الشوارع إلى ساحات عنيفة للقتال مما اوجد نوعاً من الاضطراب والقلق وعدم الأستقرار.

وبدأت فتن المماليك منذ اوائل قيام الدولة، وقد كانوا قوة عسكرية لا يستهان بها وكثيراً ما كان يلجأ السلاطين إلى ضرب جماعات وطوائف المماليك مع بعضهم البعض، كما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالاشرفية والناصرية بالمؤيدية، فيخلوا الجو للسلطان ومماليكه، فيعيثون في البلاد فساداً.[3]

وكانت فتن المماليك كثيرة، وتذكر حوادث سنة (٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م) عن تحالف كل من الامراء لاجين، قراسنقر، طرنطاي، وعقدوا بينهم الأيمان للخروج عن الطاعة، وما أن وصلت الاخبار إلى القاهرة حتى وقع الاضطراب فيها وأُغلقت الابواب، ونهب الحرافيش وعامة الناس الدكاكين، وفُقد الخبز من الاسواق.[4]

---

(١) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٤٣٤.

(٢) العليمي، الحنبلي، الأنس الجليل، جـ٢، ص ٢٨٥.

(٣) عاشور، سعيد، مصر والشام في عهد المماليك، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار النهضة العربية القاهرة د.ت، ص٣٣.

(٤) ابن ايبك، الدرة الزكية، جـ٨، ص ٣٤٧/ ٣٤٨

ومن الفتن كذلك، فتنه بيبغا آروس، سنه (٧٥٣هـ/١٣٥٢م) حيث خرج عن طاعة السلطان، مجموعة من النواب مثل، نائب طرابلس، نائب حماد [1] وفيها أغلقت الابواب وصودرت اموال الناس، وخرج لملاقاه الجيوش المصرية، وعندما علم السلطان بالامر امر بتجهيز الامراء واتجه إلى دمشق وكان بيبغا قد وصلها، وعاثت جنوده فيها فساداً ونهباً وأخذ الغلال وخاف الناس كثيراً.[2] وعم الخراب البلاد، فقام اهالي القرى والمدن بنقل اثاثهم وابقارهم ودوابهم وابنائهم ونسائهم، وكانت هذه الفتنه من الصعوبة بمكان بسبب ما ترك الناس من الغلال والثمار.

والتي هي عماد حياتهم[3] ولم يقتصر الامر على ذلك، بل زاد غضب اروس على اهالي دمشق، ونهبت ضياع دمشق وبساتينها وقطعوا الاشجار، وكانت العربان من ضمن اتباعه، فنهبوا القرى وما فيها من قماش ونساء وخيول وعاثوا فيها نهباً وقتلاً.[4]

ومن الفتن الأخرى التي أثارها الأمراء، حركة الامير اينال اليوسفي (٧٨٠هـ/١٣٧٨م) وبقيت القاهرة مغلقة لمدة ثلاثة أيام، وقل الماء فيها، وبلغ ثمن قربه الماء، نصف درهم، وظلت الامور على ما هي عليه حتى نودي بالامان وطلبت العامة عزل محتسب القاهرة فأجيبوا إلى ذلك.[5]

وكان الأمراء بسبب غضبهم من العامة، يأمرون بقتالهم، فقد أمر الأمير بركة الجوباني في سنة (٧٨١هـ-١٣٧٩/م) مماليكه أن يقتلوا كل من يجدوه من العامة، مما أدى إلى اضطراب كبير في القاهرة، حيث اغلقت الدكاكين وبقي الناس في بيوتهم لا يغادروها، ولولا قيام الاتابك برقوق بالمناداة بالأمان -لاستمر الاضطراب- لكنه كان يرأف بحال العوام.[6]

---

(١) السخاوي، الذيل التام، ص ١٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١٤، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ١، قسم ١، ص ٥٤١.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم ١، ص ٣٨٥، ٣٨٦.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، قسم ٢، ص ٢٤٠.

وكان العصيان من أهم سمات العصر المملوكي، ففي سنة (٧٩١هـ/١٣٨٨م) عصى نائب الشوبك، وانضمت اليه العربان، وخاف أهل دمشق من ذلك العصيان، وإشتد خوفهم، حتى أن الطرقات قد خلت من المسافرين، وقام الفلاحين والعربان، بنهب المحاصيل وصادر السلطان الغلال.[1] وعندما وصلت مماليك السلطان إلى دمشق. خرج نائب الشام لاستقبالهم وقدّم لهم ما يحتاجون إليه من لحم وخبز وشعير. لكنهم أفسدوا في دمشق، وتطاولوا إلى الأموال والحريم والاولاد [2] واشتدت الأمور وبالاً، وكانت فتنة منطاش، فقد أغار كل من منطاش ونعير على حماه ونهبوا اسواقها وصادروا أموال التجار فيها، فخرج اليهم الأمير جلبان، نائب حماه، وهاجم بلاد نعير في أثناء غيبته، ونهب أمواله ونسائه واحرق بيوته، وفعل بحلفائه من العرب مثل ذلك.[3]

ولقد قام العديد من المماليك بمهاجمة المناطق المختلفة، ففي سنة (٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) هاجم المهمندار،[*] زين الدين عبد الرحمن-الكرك- ومنع عنها الطعام والشراب وقاتل نائبها، وكانت المنطقة تعاني من الغلاء، ونهب المدينة وآخذ أموال الناس [4] وخربت نتيجة لهذه الحروب العديد من القرى، [5] وكثيراً ما أفسد المماليك في البلاد وخطفوا النساء والأولاد من الحمامات والطرقات وذلك لعمل الفاحشة بهم. [6] حتى أُعتبرت عند بعض المؤرخين سلطنة الناصر فرج من أشأم الفترات التي مرت على البلاد وكان ذلك في سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) فقد كثرت فيها الفتن وكان مماليكه، قد خربوا بلاد مصر والشام، وذلك باستيلائهم على أموال

---

(١) ابن صصري، الدره المضية، ص ٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٨.

(٣) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٩، ص ٣٩، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، قسم ٢، ص٤٥٧.

(*) المهمندار، صاحب هذه الوظيفة يقوم بلقاء الرسل والعربان، الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافه ويتحدث في القيام بامرهم. وهو مركب من لفظين فارسين، أحدهما مهمن بفتح الميمين ومعناه الضيف. والثاني دار ومعناه ممسك، ومعناه اجمالاً القائم على أمرد محمد البقلي. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٣٤.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم ٣، ص ١١٤٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠١٧.

(٦) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ٥، ص ١٣٢

الناس بغير حق وتدميرهم القرى، وقُدرت الأموال التي وجُدت عنده، من حواصل وخيل وسلاح بما يزيد عن ألف ألف دينار.[1]

وكان للماليك [*] الجلبان، دورٌ في إثارة الفتن، وأصبحوا سبباً في حدوث فسادٍ كبير في البلاد، ففي حوادث سنة (٨٤١هـ/١٤٣٧م) نهبوا بيوت كبار أعيان الدولة، وكان سبب حركتهم تلك مطالبتهم بزيادة رواتبهم وذلك بسبب إرتفاع أسعار علوفات الحيوانات من تبنٍ وشعير.[2]

وكانت الناس تكره المماليك الجلبان بسبب كثرة آذاهم- فقد خطفوا الصبيان المرّد من الأسواق، وخطفوا أقمشة العامة وبضائعهم[3] وكانت معظم فتنهم بسبب النفقة التي تقل عليهم.[4]

وبقيت فتن المماليك مستمرة -ففي سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) طالبوا السلطان بنفقة جديدة فأعلمهم السلطان بخلو الخزائن من الأموال،[5] فما كان منهم الا أن هاجموا شون الأمراء وقاموا بنهبها، مما أدى إلى ارتفاع في الأسعار وذلك بسبب تأخر الدولة في دفع راوتبهم، وكانت فتن المماليك تسبب الإضطراب في القاهرة، ويحصل للناس الأضرار العظيمة من ونهبٍ خطفٍ للبضائع [6] وكثيراً ما كان السلطان يأمر الأمراء بمهاجمة المماليك الجلبان وقتالهم مما يؤدي إلى اغلاق الأسواق .[7]واضطراب أحوال الناس، وكان المماليك الجلبان يلجأون إلى مهاجمة بيوت كبار الأمراء ورجال الدولة التي تضم في جنابتها الكثير من الأموال،

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ١، ص ٢٢٦.

(*) المماليك الجلبان، هم المماليك الصغار الذين يفضل شراءهم للسلطان، وهذا اللفظ يعني جلبه من بلاد أخرى، وشرائهم. وكانت أسعارهم مختلفة تتوقف على قيمتهم. محمد البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٦.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٢، ص ١٧٦/١٧٧.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٦٧.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١٦، ص ١٢.

(٥) ابن تغري بردي،حوادث الدهور، جـ ٢، ص ٥٥.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٤، ص ٩٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ٩٦.

ويقومون بعملية نهب منظم لها، ففي سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م) هاجمت طائفة منهم بيت فخر الدين كاتب المماليك، ونهبوا ما فيها، ونهبوا بيت كل من والي القاهرة والمحتسب أيضاً وحتى يستطيع السلطان تأمين نفقات المماليك الجلبان كانوا يلجأون إلى استخراج الأموال من الناس وأصحاب الدكاكين والأملاك وألزموا بأن يعجلوا أجرة الدكاكين عشرة أشهر مما أدى إلى حدوث أضرار كبيرة للسكان، وتعطلت الأسواق من البيع والشراء، واضطربت أحوال الفقراء والأغنياء. وكانت عملية جبي الأموال تتم مرتين في اليوم الواحد من فئتين مختلفتين، وضجّ الناس من ذلك وقيل فيه شعراً :

(الكامل)

لما جبّوا أملاك مصر و القرى في عام سبع مضنيّ الأهلاك

اللـهُ أكبر يـا له من حادثٍ قد ضجّ منه الأرض والأفلاك[1]

ولم يقتصر إيذاء المماليك الجلبان على كبار رجال الدولة، بل تعداه إلى عامة الناس، وكان ذلك في سنة ٨٦٠هـ فقد أخذت المماليك بنهب محاصيل البطيخ ومختلف البضائع، ورفض غالب الناس، بيع محاصيلهم وذلك خوفاً من إظهارها، مما أدى إلى ارتفاع أسعار جميع المأكولات نتيجة لمثل تلك التصرفات «بحيث أنها صارت أقلّ وجوداً من أيام الغلاء»[2] وثاروا أيضاً في سنة (٨٩١هـ/١٤٨٦م) على المحتسب بدر الدين بن مزهر وذلك بسبب قيام الأخير بعملية تسعير لمختلف البضائع من لحوم واجبان وأخباز، ونهبوا شون الأمراء والسلطان والعامة، وما فيها من شعير وقمح،[3] ومن أجل نقل البضائع التي يقومون بنهبها، كانوا يقومون بأخذ جمال السقائين لتلك الغاية، وعانت الناس كثيراً من النهب والخطف للبضائع وغيرها، مما تؤدي إلى الاضطراب وإغلاق الأسواق.[4]

---

(١) المصدر نفسه، جـ٤، ص ١٦-١٧.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ٧٢، ٧٤، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣٣٥.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٣٣.

(٤) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٩٤، ٩٦.

وفي سنة (٨٩٠هـ) عمد المماليك الجلبان إلى مهاجمه الناس، والاستيلاء على الخيول والبغال، وحتى بغال الطواحين والأكاديش التي بها حيث يؤدي إلى تعطل الحوانيت وقلة الخبز في الدكاكين[1] وكانت تتم مثل هذه العمليات أثناء التجهيز للقيام بالحملات العسكرية، فبدلاً من أن يقوموا بتجهيز أنفسهم من النفقه التي تُصرف لهم، يبادرون إلى عملية خطف ما يحتاجون إليه.

وبقيت شرورهم في تزايد مستمر، وجاروا على الناس، وخطفوا الأقمشة من الدكاكين والبضائع من الأسواق، وإستخفوا بالسلطان والأمراء وكان ذلك في سنة (٩٠٣هـ)[2] مما أدى إلى عبثهم في مقدرات البلاد، دون أن يجدوا من يقف في وجوههم وأخذوا بمهاجمة مدرسة السلطان حسن وأحرقوا بابها، ونهبوا ما بها من بُسط وقناديل، وقلعسوا شبابيك القبّة التي بالمدرسة، وأخذوا رخامها وأحرقوا ما بـها، [3] ونزلوا من الطباق ونهبوا البيوت، وسكن العوام، وبيوت اليهود[4] ولم ينجُ من أذاهم حتى الفقهاء والأمراء فرجموهم بالحجارة، وألقوا عليهم الماء المتنجس بالأقذار، وخطفوا عمائم الفقهاء في ربيع الأول سنة (٩٠٤هـ). [5]

وتزايدت شرور المماليك الجراكسه – فما أن دخلت سنة تسعمائة للهجرة حتى استمر النهب والقتل –وتوقفت أحوال الناس، وكان الاختلاف بين الحكام والعسكر في جميع بلاد الاسلام في مصر والشام والأراضي المقدسة.[6]

والنتيجة التي نخلص إليها أن البلاد عانت من فوضى داخلية شلت حركتها، وكان السلطان غير قادر على كبح جماح مماليكه فأستشرى الفساد في البلاد، وتعطلت مصالح الناس وانعدم الأمن، وقلت الأموال لدى عامة الناس، وخلت الخزائن السلطانية من الأموال بسبب نهب المماليك.

---

(١) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٢١٩.

(٢) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٣٨٩،٣٨٨.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٣٧١،٣٧٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٧٥

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٠.

(٦) العليمي الحنبلي، الانس الجليل، جـ٢، ص ٣٧٧.

وكان لا بدّ أن يترتب على تلك الفتن التي عصفت بالدولة أحوال إقتصادية متردية وإستنزاف للعامة مادياً، بالإضافة إلى اقفال للاسواق والمخازن والمتاجر، فضلاً عن الأموال الهائلة التي كانت تنفق على الجند، مما أثر في ارتفاع الأسعار وغلاءً البضائع وفقدها من الأسواق.

جـ- الحروب والأخطار الخارجية

كانت الحروب والأخطار كثيراً ما تؤثرحكم في الاقتصاد المملوكي وارتفاع الأسعار وبالتالي حدوث المجاعات، فعند الشعور بقدوم عدّو خارجي يحرص الناس على شراء كميات كبيرة من الطعام وتخزينها للاستفادة منها في أوقات الحصار، حيث يؤدي ذلك إلى إختفاء المواد التموينيه من الأسواق، بالتالي إلى ارتفاع أسعارها.

ومن الاخطار الخارجية التي داهمت الدولة المملوكية، خطر التتار، ففي سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٨م) وصلت الأخبار إلى الشام بقدوم التتار من العراق فهرب أهل الشام وباعوا محاصيلهم وتفرقوا في البلاد، وغادر جماعة منهم إلى مصر، ومات أكثرهم في الطـرقات،[1] وقُتل كثيرٌ من أهل الشام على يد التتار واستولت عساكر التتار على الأولاد والذخائر، وحاصروا قلعة حلب وأخذوا جميع ما فيها من الأموال.[2] وفي سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) استولى هولاكو حلب، وقتل أهلها، وكان جُلُّ من قُتل من الفلاحين، وبقي الناس في الذل والمصادرة والسخرة،[3] ونتيجة لتتابع إغارات التتار على حلب، كان أن هرب أهلها إلى دمشق، وخاف الناس وتركوا بلادهم.[4]

وبعد خروج التتار من البلاد في سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) حدث غلاءُ شديد وغلت الأسعار، وقلت الأقوات، وارتفع سعر اللحم إلى سبعة دراهم ورطل السمك ثلاثين

---

(١) ابن ايبك، كنز الدرر، جـ٨، ص ٤٤.

(٢) ابو شامة الذيل على الروضتين، جـ١، ص ٢٠٣، ابن سباط، تاريخ، جـ١، ص ٣٨٥.

(٣) الصـفدي، تحفه ذوي الالباب، ص ١٦١. اليافعي، ابو محمد عبدالله بن اسعد بن علي (ت ٦٩٨هـ/٧٦٨هـ) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في ما يعتبر من حوادث الزمان، منشورات مؤسسة الأعلمي بيروت، لبنان ط٢، ١٩٩٧، جـ ٤، ص ١٤٨، و سيشار اليه لاحقاً باليافعي مرآة الجنان.

(٤) ابو شامه، الذيل على الروضتين، جـ١، ص ٢١١.

درهماً، ورطل اللبن خمسة عشر درهماً، والتفاحة خمسة دراهم، حتى أُكلت الميته من شدة الغلاء.[1] وكانت الناس عندما تسمع بقدوم التتار، تتجهز للهرب، ففي سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م) قام الأمراء ببيع حواصلهم، وألزم ولاة الأمر كبار رجالات دمشق بالرحيل إلى مصر[2] وكانت غزوات التتار لبلاد الشام متتالية، خسر الناس كثيراً من أهلهم ومواشيهم ، وتمت مصادرة أهالي دمشق، وأخذت الدواب، وإشتدوا في التعذيب والمصادرة والى جانب أعمال التتار هذه ، كان الجوع والغلاء والهم[3] وذُكر ان الذي وصل إلى ديوان قازان من الأموال والمصادرات بلغ ثلاثة الاف وستمائه درهم، ما عدا البراطيل.[4]

وظل التتار يعيثون في البلاد فساداً، ولم يقتصر إعتدأتهم على حلب ودمشق بل! امتدت إلى الكرك والقدس، حيث قاموا بنهب الجوامع والمدارس والبسط القناديل[5] وكانت سنة (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م) سنة سوء وفقر مدقع وقيل فيها.

(الكامل)

أما دمشق فأهلها قد أصبحوا بكربةٍ، جعلوا التسنن مذهبا
سراً وجهراً انفقوا أموالهـم حتى تجلل كل شخص بالعبا

وقيل ايضاً : (المديد)

ما لبستُ الصوفَ من عبثٍ لا ولا الخلفان مسجانا
إنه زيٌّ لمن هو من فقراء الشيخ غازانا.[6]

---

(١) اليونيني، ذيل المرآة الزمان، جـ١، ص ٤٣٦، الكتبي، عيون التواريخ، جـ ٢٠، ص ٢٤٨.

(٢) ابو شامه، الذيل على الروضتين، ص ٢١٩.

(٣) ابن العراقي، ولي الدين بن ابي زرعة بن عبد الرحيم (٨٢٦هـ/١٤٢٥م) الذيل على العبر في خبر من عبر، تحقيق، صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٩، بغداد، جـ ٣، ص ٣٩٤. وسيشار اليه لاحقا بابن العراقي الذيل على العبر.

(٤) اليافعي، مرآة الجنان، جـ٤، ص ٢٣٠.

(٥) المقريزي، السلوك جـ١، قسم ٢، ص ٨٩١/٨٩٢.

(٦) المقريزي، السلوك جـ١، قسم ٢، ص ٩٠٣.

وهذا دليل على الأوضاع الإقتصادية الصعبة التي أخذ يعاني منها سكان بلاد الشام، والاضطراب الداخلي الكبير الذي صاحب غزو التتار المستمر.

ومن اجل اخراج تجريدة لقتال التتار أُستخرج من أصحاب الأملاك اجرة اربعة اشهر، وأُخذ من القرى والضياع والأملاك، ثلث محصولها على الرغم من ضعف المحصول، وعانى الناس من ذلك كثيراً حتى ان أصحاب الاملاك إختفوا، ومن الناس من قطع الاشجار وباعها حطباً وبلغ قنطار الحطب ثلاثة دراهم، وأنفق على الجند كل واحدٍ ستمائة درهم وانسحب أكثر هؤلاء الجند بعد أخذهم لنفقتهم ولم يبق منهم الا القليل[1] وظل التتار يجوبون خلال الديار نهباً وتخريباً فهرب الناس وتوجهوا إلى مصر.[2] وفي سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) عاد غازان إلى بلاد الشام وخلت البلاد من ساكنيها، وكان السلطان قد خرج بعساكره إلى الشام ولكنه تراجع بعد سماعه، بعودتهم إلى بلادهم بعد مكوثهم في الشام لمدة ثلاثة اشهر.[3]

وقبل العودة، قام بجبي الأموال، وحاصر القلعة، وحصّل من الأموال ثلاثة الأف وستمائة الف درهم، سوى السلاح والدواب [4] وفي سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) ولأجل بعث حملة جديدة ضد التتار، قام المماليك بمصادرة الأموال، وقُرِّر على البلاد من القرى والفلاحين، اموالاً وأُستخرجت أجرة أربعة أشهر أيضاً من أصحاب الاملاك والأوقاف في دمشق بغض النظر عن امكانياتها، وجفل أهل الشام وخافوا من التتار، ومنهم من هرب إلى الديار المصرية، حيث إمتلأت بهم القاهرة ومصر، مما يرتب إعباء إضافية على البلاد من البشر بحاجة إلى طعام ومأوى، فغلت الأسعار،

---

(١) ابن ايبك، كنز الدرر ج٩، ص ٤٤، الصفدي، تحفه الالباب، ص ٢٠٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ١٠٢/١٠٣، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ٤٠٤.

(٢) ابن سباط، تاريخ، جـ١، ص ٤٧٣.

(٣) ابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن (ت ٧٧٩هـ- ١٣٧٧م) تذكره النبيه في ايام المنصور وبنيه، تحقيق محمد أمين، البنية المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦، جـ١، ص ٢٣٣. وسيشار إليه لاحقاً بـ ابن حبيب، تذكرة النبيه، المقريزي، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، ط ١، بيروت، ١٩٩١، جـ٧، ص ١٦٩، وسيشار إليه لاحقاً بـ المقريزي المقفى الكبير.

(٤) المقريزي، المقفى الكبير، جـ٧، ص ١٧٢/١٧٣.

وبلغت الغرارة القمح ثلاثمائة درهم، والرطل اللحم تسعة دراهم.[1]

وكان السبب في جبي هذه الأموال، هو النفقة على المماليك، فعندما تفرغ الخزائن يقوم السلطان بفرض المال على البلاد والعباد. وكثيراً ما كانوا يوزعون النفقة على التجار والمباشرين وأعيان الناس، ليقوموا بها «فكانوا يحصلون الاموال بالباع والذراع»[2] وفي ايام الناصر فرج خربت الشام وحرقت وقُتل وسُبي من أهلها الكثير، وفُقد منها جميع مافيها من حيوانات وتشرد أهلها واشتد بها الغلاء [3] وقُطع اشجارها، وفي عهده ايضاً خربت أرض فلسطين، بحيث ظلت القدس مدّة، إذا افتتحت صلاة الظهر بالمسجد الأقصى، لا يُصلي خلف الامام سوى رجلين.[4]

وطلب ايضاً من الأوصياء سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) مبلغ خمسمائة ألف درهم، من أجل تجريده تخرج لقتال تيمورلنك، فقاموا ببيع طاحون للايتام ونصف قرية من بيت المال، لحاجتهم لتجهيز العسكر، وقاموا بتبيان القيمة والملك والحيازة لبيت المال عند القاضي الحنبلي،[5] ولم تسلم الشام من تيمورلنك فقد نهب اسواقها في سنة(٨٠٣هـ/١٤٠٠م) وارتفعت الأسعار فيها، ووصلت الغرارة القمح ثلاثة الأف درهم فضه، ووصل عليق الخيل إلى نصف دينار، وعانى أهل القرى من الجوع والبرد وأفسد جنده في البلاد،[6] واقفلت الأسواق، وتعطلت المساجد من إعلان الآذان وإقامة الصلاة، وكثر الناس في دمشق بسب فرارهم اليها من حلب وحماه وعقدوا

---

(١) النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) نهاية الأرب في فنون الادب، جـ ٣١، ص ٤١٢؛ المنصوري، مختار الأخبار تاريخ الدولة الايوبية ودولة المماليك تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية للكتاب بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص ١١٥؛ وسيشار اليه لاحقا بـ المنصوري مختار الأخبار، المقريزي، السلوك جـ ١، قسم ٣، ص ٩٠٧.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ٤٩.

(٣) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص٩٩.

(٤) المقريزي، السلوك ،جـ ٤، قسم١، ص٢٢٧.

(٥) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، جـ٣، ص٥١٧.

(٦) ابن حجر، أبناء العمر، جـ٤، ص٢٠٧، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص٩٣.

العزم للرحيل إلى مصر[1] وكان من نتائج المصادرات التي كانت تتم للفلاحين، أن أُخليت أعدادٌ كبيرة من القرى، بسبب الضرائب المفروضة على التجاريد، وكان لهروب أهالي دمشق وفلسطين إلى مصر، أن اشتدت الأوضاع الاقتصادية سوءاً على ما فيها من سوء.

ومن الأخطار الخارجية الأخرى التي هددت البلاد، خروج التركمان وتمردهم في سلطنة المؤيد شيخ، فقد أخلى أهل حلب بلدهم في سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م) خوفاً من قرا يوسف وكان باغياً فقد دخل إلى البلاد ونهبها وأحرق اسواقها، وملك مدينة طرطوس، ولما وصل ذلك إلى السلطان جهز حملة، وقاتل التركمان، واجبرهم بالعودة إلى طاعته.[2] وكان خطر التركمان منذ سنة (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) وخاصة في شمال الشام، وعاثوا في البلاد فساداً وأذوا الناس.[3]

وعاثت الفرنج في سواحل البلاد تخريباً، ففي سنة (٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥م) وأحرقوا باب رشيد، ونهبوا الاسكندريه، وقتلوا المسلمين، ونهبوا الأموال والغنائم وظلوا يقتلون ويأسرون ويسبون الناس لأيام عديدة[4] وفرّ أهل الاسكندرية وغلت الأسعار عندهم، فباعوا الغالي بالرخيص، وأخذوا في الحرص على تحصيل الأقوات بالرغم من غلاء السعر، ولم يرجعوا إلى قول الشاعر:

(الرمل)

إذا غلاء شيء عليّ تركته   فيكون أرخص ما يكون إذا غلاء.[5]

وفي سنة (٧٦٩هـ/١٣٦٧م) توجه الفرنج إلى طرابلس الشام، تساندهم مئة وثلاثين مركباً، وصحبهم في ذلك ملك قبرص، فخرجا إلى السواحل وهزموا المسلمين، ودخلوا المدينة وقاموا بنهب بعض أسواقها.[6]

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم٣، ص(١٠٣٦-١٠٤٨)

(٢) ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٧، ص٣١٤/٣١٥، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣٩/٤٠.

(٣) ابن صصرى، الدّره المضيئة، جـ١، ص٣.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٤.

(٥) النويري، الإلمام بالإعلام، جـ٢، ص١٦٢.

(٦) ابن حجر ، ابناء الغمر، جـ٥، ص٣، ابن تغري بردي، النحوم الزاهرة، جـ١١، ص٢٤.

وكانوا كثيراً ما يستولون على المراكب المحملة بالغلال والمتوجه إلى الشام مما يؤدي إلى ارتفاع في الاسعار، وتروي أحداث سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) أن الفرنجه أخذوا أربعة من مراكب المسلمين المحملة بالغلال والدقيق، وكانت قيمة ما استولوا عليه تزيد عن مائة ألف دينار وكانت مراكبهم تتجاوز الخمسة عشر مركباً.[1] [2]

وهكذا نرى أن الأخطار الخارجية والغزو الخارجي للمنطقة، قد أثرت سلباً على النواحي الإقتصادية، والاجتماعية حيث ارتفعت الأسعار، وقلت الأموال المتداولة بين ايدي الناس، واغلقت الأسواق، وحدث الجوع لدى السكان. وخلت البلاد من سكانها، وهرب الناس إلى البلدان المجاورة مما أدى إلى حدوث نوع من الخلل الديمغرافي، وترتب أعباء اضافية على الدولة.

د- فساد الحسبه

الحسبه ولاية دينيه أساسها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر،[3] ولقد كان الرسول (ﷺ) يقوم بدور المحتسب، من مراقبة للأسواق للتأكد من البضائع المطروحة ومحاربة الغش، ومراقبة الآداب العامة ومنع الأذى قبل وقوعه.

ومن مهام المحتسب النظر في أقوات الناس، وكشف غمة المسلمين والتأكد من المشروبات، ولايجوز له تسعير البضائع في الأوقات الطبيعية-ولكنّ الفقهاء أجازوا هذا الأجراء في حالات الغلاء، أو إذا كانت المواد المسعرَّة موجودة في البلاد أصلاً غير مجلوبة إليها.[4]

وبما أن المحتسب هو المسؤول الأول عن مراقبة الأسواق والمحافظة على الآداب العامة، فقد كان هناك مجموعة من الأعوان للمحتسب، تقوم معه بدورها في المراقبة، وبما أن العصر المملوكي، هو استمرارية للعصر الأيوبي، فقد استمر منصب المحتسب، ولكن واجباته قد زادت واتسعت، فقد كان المنصب قديماً مقتصراً

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم٢، ص٨١٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة جـ٣، ص٢١٧.

(٢) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ١، ص٢٩٨.

(٣) القرشي، محمد بن محمد بن احمد (ت٧٢٩هـ/١٣٢٨م) معالم القربة في أحكام الحسبه نقله وصححه، روبين ليوني، ط١، دار الفنون كيمبرج، ١٩١٣، ص١٣.

(٤) السُبكي، مُعيد النعم، ص٨٥.

على موظف واحد الا انه في العصر المملوكي، أصبح لكل مدينة محتسباً خاصاً بها.[(١)]

الا اننا نلحظ تدهور منصب الحسبه في مصر المملوكيه في الفترة المتأخره، وأصبحت من الأسباب التي أدت إلى المساهمة في حدوث الأزمات الاقتصاديه في ذلك الحين، فأصبحت الحسبة اول مظهر من مظاهر الفساد في مصر، ومن الملاحظ أن المنصب قديماً كان يتم بقيام السلطان بتعين شخصٌ مؤهل للقيام بمهام المنصب ولكنه في هذا العصر أصبح يُطلب ويُسعى به بالمال.[(٢)] وكان الذي يرغب في تولي المنصب يبذل الأموال فيه، وكان السلطان يولي من يرشيه كائناً من كان.[(٣)]

أما المقريزي فيرى أن السبب في التدهور الاقتصادي هو «ولاية الخطط السلطانيه والولايات الدينيه بالرشوه، كالوزارة، والقضاء، ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة» [(٤)] ووصل إلى منصب الحسبة من ليس أهلاً لها ففي سنة (٧٨٢هـ/١٣٨٠م) عُزل محتسب دمشق ووليّ أحد العامة يقال له «قاسم» وبتوليته إتضع منصب الحسبه إلى هذا الحدّ [(٥)] ووليّ حسبه مصر أحد باعة السكر يدعى «شرف الدين محمد بن علي الجيزي» بمال كان قد قدمه «فكان هذا من أشنع القبائح وأقبح الشناعات».[(٦)]

وتمدنا المصادر التاريخيه بأخبار كثيره عن عزل وتوليه الكثير من الأشخاص لهذا المنصب، فتروي حوادث سنة(٨٠٩هـ/١٤٠٦م) أنه «وقع في هذه السنة والتي بعدها والتي قبلها من تلاعب الجهله بمنصب الحسبة ما يتعجب من سماعه، حتى أنه كان يليه في الشهر الواحد، ثلاثة أو أربعة»[(٧)] والسبب في هذا، هو المال

---

(١) أبو زيد، سهام، الحسبة في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦، ص٨٨.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم١، ص٩٢، ابن حجر، أبناء الغمر، جـ٣، ص١٩٦.

(٣) ابن قاضي شهبه، تاريخ، جـ٢، ص١٨٤.

(٤) المقريزي، إغاثة الأمة، ص٨٠.

(٥) ابن قاضي شهبه تاريخ، جـ٢، ص٣٥.

(٦) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم١، ص١١، الاسدي، التيسير والاعتبار، ص ٩٧.

(٧) ابن حجر، أبناء الغمر، جـ٦، ص١٦.

الذي كان يدفعه من يريد تولي المنصب، ثم يقوم آخر فيزيد ويصرف الذي قبله، ولم يقتصر هذا الأمر على منصب الحسبة، بل تعداه إلى جميع الوظائف «وكانت تتم عملية تولية العمال بالمال، وتناول البدل على ولاية الأعمال، وانتماء كل ظالم إلى ركنٍ من الأركان، أو إلى عينٍ من الأعيان»[1] فهذا كله أدى إلى سوء في الإدارة وانهيار إقتصادي فيما بعد.

وكان العامة كثيراً ما يتدخلوا في عملية عزل محتسب وتوليه آخر ففي سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م) شكى الناس للسلطان من ضياع أمور الحسبة والفساد الحاصل بها، وكان المحتسب يدعى «يشبك الجمالي»وكان مهملاً لأمور الحسبة، فزاد السعر، وضاعت البضائع وقلّ الخبز في القاهرة في تلك الفترة،[2] وكان المحتسب عند عجزه عن القيام بمهام وظيفته يكثُر تزاحم الناس على الأفران ونهبهم لمخازن القمح، وكان كثيراً ما تصدر المراسيم بأن يقف على كل فرن جماعة من المماليك وذلك لمنع الناس عن المزاحمة والنهب.[3]

وارتبط عزل المحتسب بوقوع الغلاء، فقد صُرف محتسب القاهر بدر الدين الغياثي، عنها وتولاها أينال الشمشاني، بسبب غلاء الأسعار وإرتفاع سعر الذهب أيضاً[4] وكان المحتسب كثيراً ما يخاف من العوام، وذلك لانهم يقومون بعملية رجم للمحتسب إذا لم يرضوا عنه ومن الأمثلة على ذلك إنقطاع القاضي «شرف الدين الدماميني» في بيته بعد ارتفاع ثمن القمح إلى مائة وعشرين كل أردب، والشعير إلى ستين درهماً وكان مختفياً خوفاً من العامة.[5]

وكثيراً ما وقع المحتسبون تحت ضغوط كبار الأمراء-من أجل عملية الرماية على الناس والتجار، وذلك لأجل تحقيق أرباح سريعة، فهذا القاضي «شمس الدين محمد البجاسي» يشترط لكي يتولى الحسبة «أن لا يتجُوه عليه بأمير ولا خاصكي،

---

(١) الأسدي، التيسير والاعتبار، ص٩٥، ٩٦.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص١٦٥.

(٣) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص٢٠٧.

(٤) ابن حجر، أبناء الغمر، جـ٨، ص٩٤.

(٥) إبن الفرات، تاريخ، مجلد٩، جـ٢، ص٤٣٩.

ولا يُلزم برمايات»[١] وكان منصب الحسبة يشغر لمدة طويلة، بسبب العزل المتوالي، ففي سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٨م) شغر المنصب، فقام بمهام الحسبة «يشبك الجمالي» ولكنه لم يقم بأي عملية لكشف البلاد والتعرف على أحوال المسلمين، وكانت تصله الأخبار من الأعوان، الذين يساعدونه، وقد أصبح هؤلاء الأعوان، من أصحاب الأموال والبضائع والدور حيث كانوا يأخذونها من الناس، ولم ينسوا رئيسهم من ذلك فقد كانوا يحملون إليه ما تصل إليه أيديهم، ولكنه ما كان يأخذ شيئاً من ذلك، ولكنّ ما أحسن قول الشاعر.

(الكامل)

ورابط الكلب العقور ببابه فأصل ما بالناس من رابط الكلب[٢]

ومن أجل الوصول إلى منصب الحسبة، كان من يرغب بتوليتها يقوم بايغار صدور بعض العامة من أجل مهاجمة المحتسب، ففي سنة (٧٩٩هـ/١٣٩٦م) غلت الأسعار فتشاءم الناس ووقفوا للمحتسب ورجموه بالحجارة وكان ذلك بايعاز من إبن «البجاسي» الذي فرّق في بعض أو باش العامة مبلغ مئتي درهم، والهدف من ذلك هو عزل المحتسب وإعادته إليها.[٣]

وكان التجار يقومون ببرطلة المحتسب، فيأخذ ذلك منهم، ففي سنة (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م) توجّه نفرٌ من العامة، وهم يحملون بين أيديهم المصاحف والأعلام، مطالبين بعزل المحتسب «علاء الدين بن عرب» والذي حصل منه الضرر الكبير للناس، حيث كان يقوم بأخذ البراطيل، ولا يقوم بعملية تسعير البضائع.[٤] وظهر أثر الحسبة في الشام أيضاً ففي سنة (٨٩١هـ/١٤٨٦م) وقف العوام في الجامع الأموي- واستغاثوا- بسبب القمح الذي طرحه المحتسب عليهم بأثمان غاليه [٥] وكان التجار والخبازون يبرطلون المحتسب، فيسكت عنهم، فعندما ينادي بتحديد أسعار الخبز

---

(١) إبن الفرات، تاريخ، مجلد٩، جـ٢، ص ٤٤.

(٢) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص٤٢.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم٢، ص٨٧٥، ابن حجر، أبناء الغمر، جـ٣، ص٣٢٢.

(٤) ابن حجر، ابناء الغمر، جـ١، ص٧٦، ٧٧، إبن إياس، بدائع الزهور، جـ١، قسم٢، ص١٢٦.

(٥) البصروي، تاريخ، ص ١١٠.

الخاص بدرهمين الا ربع، وما دون ذلك بدرهم وربع يكون المحتسب قد حصل على البراطيل، فيبع الخبازون، كما يريدون وبالأسعار التي يحددونها، دون الاعتبار لعملية المناداة.(١)

والنتيجة التي نخلص اليها ان انهيار الحسبة، كان نتيجة حتميه لتدخل كبار الأمراء واصحاب النفوذ في الدولة في عملية تولية الحسبة لمؤيديهم، بغض النظر عن أهليتهم لذلك، ولم تعد مقتصرة على الفقهاء والعلماء، بل تعداد إلى عامة الناس وأصبحت تُنال بالرشوة والبراطيل.(٢)

وكان لانهيار منصب الحسبة، أثرٌ واضح في إنهيار الإقتصاد المملوكي وسبباً من أسباب الأزمات الاقتصادية والمجاعات التي مرت بها البلاد.

هـ- ظاهرة الطّرح والرّمي

تقوم ظاهرة طرح البضائع والتي تختلف وتتنوع تنوعاً كبيراً ما بين الأبقار والماشية والأقمشة، وتقوم هذه الظاهرة على ان تطرح الدولة البضائع المتوفره لديها على التجار، وتفرضه عليهم بالسعر الذي تريد، وبالكمية التي تراها مناسبة، بغض النظر عن حاجة الاسواق لها، أو عدم حاجتها، ولم يكن التاجر يملك حق الرفض أو القبول أو المساومة على السعر المعروض، وكانت مصادر هذه البضائع إما عبارة عن هدايا واردة للأمراء والسلاطين، واما بضاعة محتكرة من قبل الدولة نفسها، أو حتى منهوبة أو مصادرة.(٣)

أما المعنى اللغوي للطرح فقد اختلف فهمه من قطر لقطر ومن ولاية لأخرى فقد يكون ضغط الشيء أو الإعطاء، وحتى الدين، وأما الرّمي فهو التكاليف وكانت ظاهرة الطرح تختلف عن التحكير أو التحجير، حيث يرغم التجار على بيع بضائعهم المستوردة في مكان معين يسمي الحكر، مثل حكر النعناع وحكر

---

(١) ابن طولون، مفاكهه الخلان، جـ١، ص ٢٦٧/٢٦٨.

(٢) دراج، أحمد، الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكيه – المجلة التاريخية المصرية، مج١٤، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٨، ص١١٦، للمزيد : انظر، سهام أبو زيد، الحسبة في مصر، ص٨٦، ١٠١.

(٣) قاسم عبده، اسواق مصر في عصر سلاطين المماليك دار المعارف الزقازيق، ١٩٧٦، ص ١٦.

السمناق، ولكن الاحتكار يساند الطرح حيث يُسهل تثبيت السعر [1]
والإحتكار منهيٌ عنه في الشرع، وذلك لانه يتسبب في ارتفاع الأسعار، ولما يترتب عليه من الفساد أيضاً[2] ومن الأدلة على أن الاحتكار سبباً في إرتفاع الأسعار أنه في سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) بلغ الخبز ستة دراهم، ثم ارتفع إلى ثمانية واستخرج في السنة التي تلتها، وظل سعره يتراوح ما بين الإربعة إلى خمسة دراهم الرطل، بالرغم من كثرة وجود الغلال، ولكن كثرة الاحتياط عليها وخزنها، اوصل الناس إلى البلاء وارتفاع الاسعار.[3]

وقد ظهر العديد ممن مارسوا سياسة الاحتكار، فظهر في دمشق تاجر يدعى«ابن النشو»[*] سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م) حيث كان يحتكر الطعام وخاصة في اوقات الغلاء، وكان يأخذ غالب محاصيل دمشق عن طريق الشراء، ومن ثم يحتكرها ويبيعها بالسعر الذي يريد.[4]

ولم يقتصر الأحتكار على التجار، بل تعداه إلى الأمراء والسلاطين «فالأشرف برسباي» كان محباً لجمع الأموال، وكان يتاجر بالغلال من تبنٍ وسُكر وغير ذلك وقد كان كثير المصادرات للناس[5] وقد إحتكر هذه التجارة وطلب من التجار عدم بيعه الا للسلطان [6] كما أنه طلب منهم في سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٦م) عدم بيع الفول الا

---

(١) صالحية، محمد عيسى، ظاهرة الطرح والرمي في الاقتصاد المملوكي، مجلة ابحاث اليرموك، مج ٩ العدد ٤، ١٩٩٣، ص ٥٣.

(٢) ابن الحاج، ابو عبد الله محمد العبدري الفاسي (ت٧٣٧هـ /١٣٣٩م) المدخل الى الشرع الشريف، دار الكتاب، بيروت، ط ٢، ١٩٧٢، جـ ٤، ص ١٧٢. وسيشار اليه لاحقا بالمدخل لابن الحاج.

(٣) الأسدي، التيسير والاعتبار، ص ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤.

(*) النشو، محمد بن عبد الله الدمشقي، كان شاد المراكز بدمشق، وكان يحتكر الغلال، فلما وقع بدمشق الغلاء، وخرجوا للاستسقاء، وجدوه، فرجمه العوام حتى سقط، وجروه برجليه واحرقوه، وذهب دمه هدراً. انظر ابن حجر، أنباء الغمر، جـ ٣، ص ٣٢٩.

(٤) ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص٢٠٧.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم٢، ص٨٧٧.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ٢، ص١١٩.

إلى السلطان.[1] وكان المتجر السلطاني قد إحتكر بيع الغلال في جميع النواحي، ولم يكن باستطاعة أحد من التجار عدم الشراء منه، وأدى هذا الإجراء إلى ارتفاع أسعار الغلال من مئتين وأربعين درهماً إلى ثلاثمائة درهم.[2]

وكانت المصادرات والنهب من الوسائل المهمة في توفير الأصناف التي تُطرح في الأسواق، وشملت المصادرات الأمراء والقضاة والأعيان، وأهل المدن والقرى والعربان، فقد كثرت المصادرات في دمشق والقاهرة ومصر، فصودر التجار ونُهبت الماعز وطرحت على الناس بأضعاف أثمانها.[3] واشتهر في هذا المجال إثنان من الأمراء، شاعت أخبار مصادراتهما ونهبهما في البلاد، وهما النشو، والأمير فخر الدين بن أبي فرج فقد صادر النشو في عام (٧٣٧هـ/١٣٣٦م) أموال ابن فخر السعداء بحجة متاجرته بالكتان في أراضي قليوب، وتجارة بيع الخشور فرسم بالحوطة على سائر أمواله، وأخذ حواصله وسائر أملاكه وحمل من ذلك نحو مئتي ألف درهم،[4] وصادر أيضاً دواليب جماعة من أهل الصعيد، وذلك بعد أن أجدب زرع الفول واكلته الناس [5] وفي سنة (٨١٦هـ/١٤١٣م) صادر فخر الدين الاستادار قرى الصعيد ونهب ما فيها من الاماء والذهب والسلاح والغلال، ورمى هذه الأصناف على الناس بأغلى الاثمان.[6]

وكثر ظلم فخر الدين بن أبي الفرج، وقد سرح إلى الوجه القبلي، فاحتاط على أموال الناس، ومشايخ العربان، وأخذ من الأبقار ستة الاف، ومن الأغنام ثمانية الاف، ومن الجمال ألف، ومن قطر السكر ألف قنطار، ومن الرقيق ألف رأس، وحصل في غياب السلطان الضرر الشامل [7] وفي سنة (٨١٦هـ/١٤١٣م) وفي غياب السلطان، أظهر ابن ابي الفرج، أنواع المظالم في البلاد حتى شنت

---

(١) اليوسفي، محمد بن يحي (ت٧٥٩هـ/١٣٥٨م) نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر. تحقيق، احمد حُطيط، عالم الكتب، ط١. ١٩٨٦، ص٢٤٣، وسيشار أليه لاحقاً باليوسفي، نزهة الناظر.

(٢) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢. ص١٥٥.

(٣) صالحية، الطرح والرمي، ص٤٩.

(٤) اليوسفي، نزهة الناظر، ص٣٠٨.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٤٣.

(٦) المقريزي، السلوك، قسم١، ص٢٧٤، ابن حجر، ابناء الغمر، جـ٧، ص١١٦.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص٣١، ٣٢.

الفلاحين، وأخرب غالب البلاد، وجبى الأموال بالعسف وسار به إلى السلطان.[١]

ومجمل القول أن الأمير فخر الدين، صادر الناس في أموالهم ودوابهم ومأكلهم وعمّ شره البلاد، بما فيه القرى السلطانيه وقرى الامراء والاجناد، حتى وصف بأنه صادر كل من أُشير له بغنى.[٢]

وكثيراً ما لجأ السلاطين إلى المصادرات لتعويض الخسائر التي تلحق بهم، وكانت تفرض على سائر البلاد والقرى، ففي سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) فُرض الأموال واستخرجت من الفلاحين وفي دمشق، فُرض على أصحاب الأملاك والأوقاف أجرة أربعة أشهر، وحصل الضرر للناس بسبب هذا الأمر.[٣]

وتسلطت الكشاف وأصحاب الجباية والخراج بالظلم على الفلاحين، وقاموا بضربهم وحبسهم، وأخذ أموالهم وتقاوي زروعهم، وأخذ الأموال بغير حق ونهب الدواب.[٤] كما فرضوا الحمايات على الافران والمعاصر والحوانيت والطواحين.[٥] ومن أجل إخراج التجاريد، كثيراً ما كان يُفرض على جميع أراضي مصر اموالاً، فهذا «يلبغا السالمي»* إشتط في المصادرة ومهاجمة محاصيل الناس، ونهب المخازن، وما في يد الناس من ذهب وفضة، واشتد أذاه للناس، وكثر دعاءهم عليه،[٦] ولأجل محاربة ابن عثمان، استخلصوا الأموال من التجار، وأخذوها من الفقراء والأمراء، فاجتمع أهل حلب في الجامع الأموي، وأحضروا المصاحف واعتلوا أسطحة الجامع يكبرون ويستغثون «فنودي أن الجبايه باطلة.[٧] وكان السلاطين والأمراء

(١) المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٦٦.

(٢) صالحية، الطرح والرّمي، ص٥٩.

(٣) النويري، نهاية الأرب، جـ٣١، ص٤١٢.

(٤) الأسدي، التيسير والاعتبار، ص٩٥.

(٥) المصدر نفسه، ص١٣٧.

* يلبغا السالمي: كان من أكبر الخاصكية، ولم يكن عند استاذه مثله وكانت الإنعامات التي تصل إليه من السلطان لم يفرح غيره بمثلها يطلق له الخيول بسروجها ولجومها وكنافيشها. انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ص ٢٦٤.

(٦) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم٣، ص١٠٣٥.

(٧) البصروي، تاريخ، ص١١٢.

قد نشروا أعوانهم في الولايات لشراء الغلال والحيوانات بأسعار رخصية، وأحياناً بشراء بضاعة تدفع أثمانها من الأموال المتأخر إستيفائها للديوان واحياناً تتبع سياسة وضع اليد للحوطة على الغلال والبضائع.[1]

وصادر المماليك مراكب تجار الكارم، وطرحوا بضائعها على مياسير الناس، بثلاث أمثال قيمتها، مما حدا بالتجار إلى ترك حوانيتهم وغابوا، فأخذ الأعوان بفتح الحوانيت ونهبها «فلم يرْ في القاهرة الا شاك أو باك أو صائح ونائح» واخرج أيضاً من الأهراء عشرة آلاف أردب قمح، وطرحت على أصحاب الطواحين والأبازرة، [2] وفي سنة(٨٨٠هـ/١٤٧٥م) آذى الوزير التجار، ورمى القمح عليهم، وقدّر القمح الذي رُمي بمائة ألف أردب، كل أردب، بدينار وخسرَ فيه التجار كثيراً [3] وكان هذا القمح عتيقاً ومخزوناً في الشون،[4] وفي دمشق طرح السكر على الناس وبيع بأغلى الاثمان، وحصل الفساد في البلاد نتيجة لهذا الاجراء، [5] وطرح على أهل القدس والخليل زيتاً بلغ ألف وخمسمائة قنطار منه مئة وستون قنطاراً لأهل الخليل والباقي لأهل القدس وضيق على الناس بالضرب أو الحبس. [6]

أما بالنسبة إلى التجارة الخارجية، فقد أُخْضعت هي الأخرى لسيطرة ذوي النفوذ، لا في الرسوم والضرائب المفروضة عليها فحسب، بل في إجبار التجار ببيعها إلى السلطان أو الأمير بالسعر الذي يراه سمسار الأمير أو السلطان، وأصبح التاجر جلاباً للبضاعة ليس الا.[7]

ولشدة الحرص من قبل سلاطين المماليك على مصالحهم التجارية، عمدوا إلى تعين موظف للإشراف على كل ما يصل الموانيء من فلفل وقرنفل وغلال وحبوب،

---

(١) صالحية، الطرح والرمي، ص٥٩.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ ٢، قسم٢، ص٤١٤، انظر أيضاً السلوك جـ٣، قسم ٢و ص٥٥٣.

(٣) ابن حجر، أبناء الغمر، جـ٦، ص٢٢٣، الصيرفي، نزهة النفوس جـ١، ص١٤٣.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم١، ص٢٧٤، ابن حجر، أبناء الغمر، جـ ٧، ص١١٦.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ ٣، قسم٣، ص ١٠٠٥.

(٦) العليمي، الحنبلي، الأنس الجليل، جـ٢، ص٣٦٦.

(٧) صالحية، الطرح والرمي، ص٦٢.

وكانت تسمى هذه الوظيفة بوظيفة، نظر التجارة الكارميه، وكانت مضافة أحياناً إلى الوزير أو إلى الديوان الخاص لبيعها كما يرى السلطان أو الأمير.[1]

ولمّا أصبحت الموانيء، وطرق القوافل التجارية، تخضع مباشرة لاشراف الدولة، فتشتري البضائع وتطرحها، وإقتنص الولاة كون ولاياتهم وموانئهم محطات إستراحة وتموين للبواخر والقوافل، فأخذوا من التجار الرسوم، حتى وإن كانت وجهتها النهائية بلاداً أخرى غير ولاياتهم ونتيجة لهذا الوضع التجاري، إمتنع كثيرٌ من التجار من الذهاب إلى مصر والشام.[2] وبسبب إحتكار السلاطين للتجارة الخارجية، فقد أضحت هذه التجاره عديمة الأهمية، مما دفع بعض تجارها إلى الهجرة للهند، وتحول البعض للعمل عند السلطان المملوكي.[3] كما لجأ الأمراء ولضمان الأرباح، الكثيرة وخاصة تلك الحرف التي تدر أموالاً ضخمة، عمدوا إلى تحويلها إلى إحتكارات خاصة بهم، من أجل تأمين عائدات مرتفعة وفي عام ففي عام ٦٩١هـ/١٢٩١م) قام أحد الأمراء بشراء سوق القطن وحث السلطان على السماح له بنقل تجارة الحرير إليه، فظفر بذلك لمدّة عامين، قبل أن يعود التجار إلى سوقهم القديم.[4]

وفي سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٦م) قام أحد الأمراء بنقل تجارة الأقمشة من اسوق الموقوفة على المسجد الأموي، إلى أحد اسواقه الخاصة لزيادة مدخوله، ولولا الإضطرابات، وحالة الفوضى التي لفت المدينة وتمردات البدو، لاستمر عقد السوق في مكانه الجديد.[5]

وكانت سياسة الرّمي والطرح، قد شكلت أعباءً إضافية على السكان وأدت إلى ارتفاع في الأسعار، وحدوثٍ للمجاعات، وخاصة إذا ما علمنا أن الغلال، من قمح وشعير، كانت تتواجد بكثرة في مخازن وشون الأمراء، أو تركهم بعد موتهم، فقد

---

(١) المرجع نفسه، ص٦٢، نبراوي، أسعار السلع الغذائية، ص٧٢.

(٢) نبراوي، أسعار، ص ٧٢.

(٣) المرجع نفسه، ص٧٣.

(٤) لابيدوس ايرا، مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٠٦.

(٥) لابيدوس، مدن إسلامية، ص ١٠٧

وجدَ في تركة الأمير سلّار ثلاثة مئة ألف أردب من الغلال، بالإضافة إلى كميات كبيرة من الشعير والفول.[1] وقد أدان العلماء والفقهاء سياسة الطرح والرّمي وا لمصادرات، بدون موافقة أصحاب الأملاك، أو دفع التعويضات المناسبة وعندما لم تكن تجدي الشكوى، كان الناس يلجاوؤن إلى الفتك بظالم الطرح كما حدث لابن النشو، الذيّ قُتل وحرّق، لقاء قيامه باحتكار الطعام في وقت الأزمات.[2]

(١) ابن إياس ج٣، قسم ١، ص ٢٧. صالحية، الطرح والرمي، ص ٦٦.

(٢) ابن إياس ج١، قسم ٢، ص ٨٨. المرجع نفسه، ص ٩٢.

الفصل الثاني

الآثار الاجتماعية للمجاعات

أولاً : أثر المجاعة في القيم والمظاهر الاجتماعية

ثانياً : الآثار الاجتماعية والديمغرافية للمجاعات

ثالثاً : الآثار العلمية والثقافية للمجاعات

رابعاً : أثر المجاعة على العمارة والفنون

الآثار الاجتماعية للمجاعات

أولاً : أثر المجاعة في القيم والمظاهر الاجتماعية

الحياة الاجتماعية حياة صاخبة بكل مباهجها وظروفها، ومن عادات الشعوب كثرة وجود الاحتفالات المدنية والدينية فيها، وفي الأحوال الطبيعية، يقوم الناس بعمليات البيع والشراء والتنقل والاحتفال واقامة المواسم، وذلك للتعبير عن مظاهر البهجة والسرور، ويكون التعاون والتكافل ديدنهم في التعامل مع بعضهم البعض، وتكون قيم المساعدة في أوقات الآزمات دافعاً لهم للعمل من أجل بعضهم البعض.

وهكذا كان الحال في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، تمتلىء المجالس والشوارع والأسواق بالحركة، والأحتفال بالأعياد والمواسم، ولكن تكرار حدوث الطواعين والمجاعات في هذه البلاد أدى إلى ادخال الحزن إلى القلوب، وحل البلاء محل السرور واختلت قيم الناس، وساد الفساد والفسوق في المجتمع :

فمن الناحية القيمية، نجد ان الفئة المستفيدة، لم يعد لهم من هم سوى جمع الأموال بغض النظر عن الطريقة التي يجمعونها فيها، أهي حلالٌ أم حرام ففي وقت المجاعة أُمسك جماعة من الباعة ومعهم لحوم لحيوانات ميته ولحوم كلاب يبيعونها للناس.[1] حتى ان البعض احترف خطف الخبز من الأفران اثناء الإزمة، وارتفاع الأسعار وقاموا ببيعه بأثمان غالية.[2]

---

(١) بيبرس المنصوري، مختار الأخبار ص ١٠٢، السخاوي، التبر المسبوك، ص ٣٥٢-٣٥٣، ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ ٢، ص ٣٢٤.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ ٣، قسم٢، ص ٨٥٤.

وبالرغم من ان سؤال الناس ظاهرة طبيعية في كل المجتمعات، إلا أنها زادت في أوقات المجاعة، فعندما ارتفعت الأسعار في سنة (٨٠٠هـ/١٣٩٧م) كثر السؤال، وامتلأت الطرقات بالشحادين[1]، وكان الحرافيش يعيشون في البلاد خراباً، ففي سنة (٧٤٠هـ/١٣٣٩م) اختطفت الحرافيش الخبز من الجوع، وكانت قد استشرت ظاهرة الغش فيها، حيث اصبح اصحاب الطواحين، يقومون باضافة الحمص والشعير والفول إلى القمح ويعجنوا منه [2] ليباع خبزاً فامسكوا وقُطعت ايديهم وقيل فيهم :

(المنسرح)

كان الغلاء يغلو فإما اذا ... اصبح ناراً قلت ذا يغلي

واصبح الحرفوش ذا كسرةٍ ... من طلب الكسرة في شغل

من يطلب الخبز من يشتهي ... وهو بقطع اليد والرجل.[3]

وكان الشحادون يشكلون عبئاً على السكان والدولة، حتى انه صدر مرسوم، بعدم التصدق على أي شحاد أو حرفوش ومن وُجد يسأل في الأسواق يُعذب ويُسجن[4] وذلك بسبب الحاحهم بالسؤال وتكرارهم له وكان ذلك سنة (٨٥٥هـ).[5]

وكانت السرقات قد انتشرت بشكل كبير في مثل هذه الأوقات، وذلك لانعدام الامن وقطع الطريق في القاهرة وظواهرها، [6] وكانت السرقات كثيرة حتى ان الاكفان قد سرقت. [7] وذلك بسبب كثرة الموت، وارتفاع أسعار القماش من ناحية، وعدم قدرة الناس على موارة موتاهم الثرى، وكانت تتم عملية سرقة الاكفان عن

---

(١) ابن قاضي شهبه، تاريخ، جـ٣، ص ٨٥٤.

(٢) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٦، ص ٢٥٨.

(٣) الصفدي، تحفة الالباب، ص ٢٧٤.

(٤) السخاوي، الذيل التام، ص ٨٥.

(٥) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ١، ص ٣١٨.

(٦) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ٢، ص ٥١٨، ابن الصيرفي، أبناء العصر، ص ١١٤.

(٧) ابن حجر، أبناء الغمر، جـ٨، ص ١٩٩.

طريق نبش القبور، وبسبب أرتفاع اثمان القماش وُجد جماعة كانوا يقومون بخطف الاطفال الصغار وقتلهم من أجل ثيابهم التي يلبسونها. [1] واعتقد ان هؤلاء كانوا يفعلون ذلك إما من أجل ستر اجساد ابنائهم، أو من أجل القيام ببيع هذه الثياب للحصول على الغذاء، «وكثر السراق بالقاهرة، ومن كان عليه ديناً امتنع عن سداد هذا الدين، فضاعت الحقوق فصار كما قيل :

(الخفيف)

رام نفعاً فضر من غير قصدٍ ومن البرّ ما يكونُ عقوقاً[2]

وكثر قطاع الطريق في النيل، وكانوا كثيراً ما يأخذون المراكب المملوءة بالغلال[3] من أجل بيعها بأثمان عالية.

وقد عانى الناس كثيراً نتيجة للازمات المتتالية، فقد كثر خطف الخبز ونهبه من الاسواق، حيث خطفوا الخبز عن رؤوس الحمالين، [4] وكان الخبازون شرهين وطامعين في جمع الأموال، فامتنعوا عن بيع الخبز للناس[5] وكان يفقد الخبز من الأفران لأيامٍ معدودةٍ، وأعوان المحتسب تقوم بحماية الأفران لمنع النهب وكان ذلك في سنة (٨٤٠هـ).[6]

ولم يتمكن أحد من الناس من شرائه، وأما القمح فقد أرتفع سعره، ولا يستطيع أحدُ شراءه، إلا بواسطة أهل الدولة والجاه، أما الفقراء فلا يحصولون عليه أبداً. [7] وكانت النفوس قد يئست في هذه الفترة وتكالبت على طلب

(١) المصدر نفسه، جـ١، ص ٧٩.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٨٢-١٨٣.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم ١، ص ٥٠٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ١٣؛

(٤) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ٢، مجلد ٩، ص ٤٢٩؛ الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص ٤٣٠.

(٥) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص ٤٣٠.

(٦) ابن الفرات، جـ٢، مجلد ٩، ص ٤٣٤، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص ١٨٠. ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ١، ص ٢٨٩.

(٧) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ١، ص ٢٨٩.

القوت،[1] وكان الشخص يرمي بنفسه على طبق الخبز بالرغم من الضرب الذي يتعرض له، وقد يقع مُغماً عليه وهو ماسك قطعة اورغيفاً وممسكاًبه باسنانه.[2]

ومن القيم التي أختلت ايضاً نتيجة لهذه الأزمات، قيام الأباء ببيع أبنائهم، مما يعني زيادة أعداد الرقيق، ففي سنة (٨٠٧ هـ/١٤٠٤م) بيع كثيرٌ من الأطفال «فاسترقوا بعد الحرية وذلو بعد العزّ».[3]

وكان الآباء يبيعون أبنائهم بابخس الأثمان، ونُقل كثيرٌ منهم إلى البلاد الشامية، وبيعوا في أقطار متفرقة «كالسبي»[4] وكان يتم البيع بسبب الغلاء الذي اجتاح البلاد وقد تكون مثل هذه الروايات صحيحة إذا ما عرفنا ان الغلاء كان يسبب موت الأطفال، فقام الأهل ببيع بعض أبنائه انقاذاً له ولعائلته من موتٍ محدّق بهم «وعرض جماعة أولادهم لمن ينزلونهم عجزاً عن أكلهم».[5] وانعدم التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ولم يعد يهتم الإنسان الا بنفسه، وعندما ترتفع الأسعار كانوا يقومون بشراء المواد التموينية وخزنها خشية من فقدها «وصار الذي كان من شأنه ان يكتفي بعشرة ارغفة، لو وجد مائة لاشتراها، لما قُذف في قلوبهم من خشية فقده [6] ولم يعد يهمهم إن وجده غيرهم أم لا، وشرهت نفوس أصحاب الغلال في الأرباح، وكثيراً ما كانوا يمتنعون عن البيع طمعاً في غلو الأسعار، وخاصةً عندما تَشْرَقُ الأرض،[7] وحصلت لهم أرباح كبيرة نتيجة لهذا الأمر.[8]

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ ٣، قسم ١، ص ٢١٨.

(٢) العيني، عقد الجُمان، جـ ٣، ص ٢٠١.

(٣) المقريزي، السلوك،جـ ٣، قسم ٣، ص ١١٦٦، ابن حجر، أبناء الغمر، جـ ١، ص ١٥٤-١٥٥، العيني، عقد الجُمان، جـ ٣، ص ٢١٩.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ ٣، قسم ٣، ص ١١٦٦، المقريزي الخطط، جـ ٣، ص ٩٩، ابن العماد، شذرات الذهب، جـ ٦، ص ٢٥٠.

(٥) البصروي، تاريخ البصروي، ص ٣٢٦.

(٦) ابن حبيب، درة الإسلاك، ميكروفيلم رقم ٤٢٩، ورقة ١٩٦، المقريزي، السلوك،جـ ٤، قسم ١، ص ٣٠٥، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ١، ص ٢٩١، أبناء البصر، ص ٤٣٠.

(٧) ابن حجر، أبناء الغمر، جـ ٧، ص ١٨٦، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ١، ص ٢٩١.

(٨) النويري، الإلمام، جـ ٣، ص ٢٥٢، ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ ٢، ص ٥٤١.

وكان الظلم عظيماً، ففي سنة (٧٨٢هـ/١٣٨١م) مات أحد التجار، وترك أموالاً عظيمة، فقام الاتابك برقوق، وأحاط على أمواله ولم يعط أبناؤه منها شيئاً.[١]

وظهر الفساد في المجتمع وخاصة من المردان، فقلت الأرزاق وكسدت البضائع في الأسواق نتيجة لهذا الفساد.[٢]

وانتشرت في اوقات المجاعات، عادة أكل لحوم البشر وذلك خوفاً من الموت، وبسبب قلة الطعام، ففي شهر رمضان زادت الأسعار وبيع القمح بأكثر من ثلاثمائة درهم وزاد الغلاء حتى أكلت الناس الكلاب والسناسير[٣] ومن الناس من أكل حتى لحوم ابنائه[٤] وكانت الناس لقلة وجود خبز القمح تشتري خبز الشعير، والذي كان كل وقية بدرهم[٥] وكان من يستطيع خداع رفيقه ويقوى عليه يقوم بقتله وأكله، وأما الأطباء فقد فُقد أكثرهم، حيث كان الناس يقومون باستدعائهم لزيارة المرضى، ويقومون بقتلهم وأكلهم.[٦]

ولم يقتصر الأمرعلى أكل لحوم البشر، بل تعداه إلى أكل طين العمارة ففي رمضان سنة (٧٧٦ هـ/١٣٧٥م) اشتد الغلاء وارتفعت الأسعار وقلت الأقوات، وكان على باب سجن الديلم، معجن طين لعمارة، حائط للسجن، فقام المساجين بأكل الطين وذلك من شدة الجوع وعدم القوت.[٧]

وفيه أيضاً غلت البضائع وذلك لقلة وجود الدواب، حتى أكل الناس الموتى والكلاب لم تجد سوى جثث الموتى الملقاة على الطرقات لتسد بها رمقها.[٨]

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، قسم ٢، ص ٢٧٧.

(٢) ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص ١٦٤.

(٣) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ ٨، ص ٢٦٤، العيني، عقد الجُمان،جـ ٢، ص ٣٠٢، ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ١٨٨، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص ٥١٢.

(٤) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ١، ص ١٥٤، الحنبلي، شذرات الذهب، جـ٦، ص ٢٥٠.

(٥) البصروي، تاريخ، ص ٣٦.

(٦) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، جـ١، ص ٤٣٦، ابن صصرى، الدرة المضيئة، ١٦٩، للمزيد عن حوادث أكل لحوم البشر أنظر، المقريزي السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٨١٠.

(٧) المقريزي، السلوك،جـ٣، قسم ١، ص ٢٢٥، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، قسم ٢، ص ١٤٣.

(٨) القلقشندي، مآثر الانافة، جـ٢، ص ١٧٢، المنصوري، مختار الأخبار، ص ١٠٢.

أما الطعام، فقد تدنت جودته، وصار الناس لا يأكلون سوى النخاله، وخبز الفول والشعير بسبب أرتفاع سعر القمح، وأكل الفقراء من الناس السلق والطين والميتات.[1] [*] وفيه قيل :

(المنسرح)

لا تقم بي على حلب الشهباء ... وترحل فأخضر العيش ادهم

كيف لي بالمقام والخبز فيها ... كل رطل بدرهمين ودرهم[2]

وفي أوقات المجاعات والطواعين، أختفت كثيراً من المظاهر الاجتماعية، والتي كانت سائدة في العصر المملوكي، سواء أكانت دينية كالأحتفال بالحج ودوران المحمل، والأعياد كالفطر والأضحى أو عمل موالد لبعض الأولياء الصالحين، أو مدنيه مثل كسر الخليج أواللعب بالكرة، أو المواكب السلطانية، ففي موعد تحديد بدء شهر رمضان «وأما في ليلة، رؤية الهلال، فيحضر القضاة الأربعة إلى المدرسة المنصورية، وكانوا يلقونهم بالمصابيح الأكرة والمناجيق والشموع الموقودة، ولم يحصَ ذلك لكثرته، واوقدوا له الشموع والمشاعل وعلقوا له التنانير والأحمال الموقودة بالقناديل من الامشاطين إلى سوق مرجوش إلى الحشاشين إلى سويقه اللبن، فارتجت القاهرة في تلك الليلة، وكانت من الليالي المشهورة، واطلقوا له مجا

---

(١) ابن العراقي، الذيل على العبر، جـ ٢ ص٢٠٤، الذهبي، ذيول العبر، جـ ٣، ص٣٨٤، المقريزي، السلوك جـ ٣، قسم ١، ص ٣٢٣، ابن حجر، أبناء الغمر، جـ ١، ص ٩٢، السخاوي، الذيل التام، ص ٢٨١، العيني، عقد الجُمان، ص ٢٧٥.

(*) وقد يتبادر إلى الأذهان، ان هناك مبالغات شديدة، في أخبار هؤلاء المؤرخين وخاصة فيما يتعلق بأكل لحوم البشر، وأكل لحوم الكلاب والقطط والأبناء، ولكن مثل هذه الأمر لا يدعوا إلى الاستهجان، لأننا نعلم ان المجاعة تؤدي إلى الموت، والجوع في كثير من الأحيان يؤدي إلى اختلال القيم، وهذا الأمر يحدث في أواخر القرن العشرين، ففي كوريا الشمالية «ذكرت صحيفة محلية ان المجاعة التي تعرضت لها البلاد، حولت بعض سكانها إلى أكل لحوم البشر خوفاً من مخاطر الموت، وذكرت الصحف الكوريه، ان السلطات اعدمت مواطنين تاجروا في لحوم البشر، واضافت ان الجوع أصاب الناس بالجنون، وأنهم يقتلون ويأكلون حتى أبنائهم، وقالت ان ما لا يقل عن مليون شخص ماتوا في بلادهم جوعاً. جريدة الدستور، رقم العدد ١٠٨١٧، ص ١٤، سنة ١٩٩٧.

(٢) السخاوي، الذيل التام، ص ٢٨١.

مر البخور بطول الطريق».[1]

أما دوران المحمل ففي سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) خرج الأمير تمربغا بالمحمل إلى بركة الحاج، وصحبته خير بك المويدي، وكان الناس قلة بسبب الغلاء الذي حل بهم، واشتغال الناس بالتفكير بالغلاء، وقد ابطل أمير الحاج المسايرة التي جرت بها العادات السابقة.[2]

أما في الأعياد، فقد كان موسم العيد حافلاً، وكان ينزل السلطان إلى الميدان، حيث يجلس حوله الأمراء، ويلعب الرمّاحة أمامه في الميدان، وبعد ذلك يتم دخول المحمل وكسوه الكعبه، حيث يطوفون بها في الميدان ويجتمع كثيرٌ من الناس للفرجة.[3]

وكان السلطان في سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) قد ركب إلى الميدان للعب في الكرة، في كل سبت من أيام الاسبوع ولمدة ثلاثة أسابيع، وكان أيضاً يتوجه إلى الرماية [4]وكان هذا الوقت مناسباً ليراه الناس، ويقفوا له ليعرضوا عليه أحوالهم.

وكان كثيراً ما يستقبل القضاة الأربعة، للتهنئة بالشهر وكان ذلك في أعوام (٨٧٨هـ/١٤٧٣م) و (٨٧٩هـ ١٤٧٤م) وكانت تأتيه وفود خارجية للتهنئة بالعيد، مثل قاضي مكة البرهان بن ظهيره وولده أبو السعود [5] ومن الأحتفالات أيضاً، الأحتفال بالمولد النبوي، وكثيراً ما كان يقام الأحتفال به بالقلعة ويحضره القضاة وسائر الأمراء. [6] وكان يصاحب الأحتفالات الكثير من الفساد، حيث تنصب الخيم وتضاء القناديل ففي سنة (٧٩٠ هـ/١٣٨٨م) عمل المولد، ووجد في الزرع ما يقارب المائه وخمسون جرة فارغة من الخمر، وكان هذا المولد لرجل صالح، يقال له

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٤، ص ٢٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٣) المقريزي، السلوك،جـ ٣، قسم ١، ص ٧٨.

(٤) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٢، ص ٢٢٨.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٣، ص ١٠٢،٩٣.

(٦) المصدر نفسه، جـ ٣، ص ١٣٠.

اسماعيل بن يوسف الأنبائي،[1] ونتيجة للمجاعات والطواعين التي اجتاحت البلاد، لم تعد المظاهر الاجتماعية تحمل بين طياتها ذلك الابتهاج والفرح، فقد فقد الناس أهاليهم وأولادهم، وضاقت الأرزاق، فلم يعد الناس يقومون بعمليات الشراء، واختفت الأبتسامة من على وجوههم، وكان الناس في الأحوال الطبيعية لا تراهم الا وهم يضحكون ويهزلون الا انه في أيام الوباء والمجاعة «لا تجد الناس الا باكياً أو متضرعاً إلى الله، أو مهموماً لكثره عياله، أو تجد في بعض الاماكن قد يكون حديثهم في القمح والدقيق والخبز».[2]

وفي عيد سنة (٧٨٠هـ/١٣٢٨م) تعطل بيع الناس وشرائهم على عيد الفطر، بسبب الضرائب التي فرضت على التجار، وكذلك توقف الحجاج عن الحج، وذلك بسبب ما فُرض عليهم من شراء الجمال من السوق.[3]

وفي سنة (٨٤١هـ/١٤٣٧م) جاء العيد والطاعون في البلاد والموت فاشٍ، والناسُ في جزع وقلق، وتعطل الناس عن شراء البضائع، وكان هذا العيد نكداً يقول الصيرفي «ولم ادرك في طولْ عمري عيداً انكداً على الناس من هذا العيد"(٤) ، وكانت الأسواق كاسدة والمكاسب قليلة والشكاية عامة».[5] وبسبب الفتن لم يسر المحمل في سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) من دمشق وكان الحجاج قليلون في تلك السنة.[6] وفي سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) لم يحج أحد من أهل الشام بسبب كثرة الاختلاف [7] وكان ذلك أيضاً في سنة (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) بسبب الغلاء وأذى تمرلنك [8] وفي سنة (٨٥٥هـ/١٤٥١م) لم يحجوا لغلاء الأسعار، وقلة الجمال.[9]

(١) ابن الفرات، تاريخ، جـ ١، ص ٢٧، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ١، ص ١٦٨.

(٢) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ ١، ص ٢٩٠.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، قسم ٢، ص ٢٣٤.

(٤) الصيرفي، أنباء البصر، جـ ٣، ص ٤٠٧.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ١، ص ٥١٠/٥١١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٤، ص ٥٦.

(٨) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٢، ص ١٤٦.

(٩) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ ٢، ص ٢٣٧.

وفي عيد الأضحى في سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٨م) كانت الناس تعاني من الحزن على من مات لهم بالطاعون، وعانوا أيضاً من أنقطاع الأضاحي، ولم توزع الأضاحي من الأمراء «وكان هذا العيد اشبه الأشياء وبالمآتم، لما طرق الخلق من الحزن والكآبة وقبض الخاطر.[١] وكانت الأضحية كثيراً ما تنعدم، بسبب موت الحيوانات بالطاعون، واختطاف المماليك الجلبان للاضاحي واذى العبيد والزعر.[٢]

وقد أُبطلت العديد من مواسم الأحتفالات، مثل إبطال مولد سيدي أحمد البدوي، بسبب الطعن الذي كان منتشراً، وثورات العربان واضطراب الأمن، وكذلك أُبطل، لبس الشاش والقماش في المواكب، وأقتصر على أيام الجمع والأعياد[٣]، وكذلك أُبطلت ضرب الكرة بسبب الطاعون، وكان كثيراً من الأمراء، قد أصابهم الهم والحزن بسبب فقدهم لاولادهم في هذا المرض.[٤]

وفي سنة (٩١٩هـ/١٥١٣م) كان العيد شاقاً على الناس، بسبب المال الذي رمي على الحارات، [٥] وفي الأوقات الطبيعية، كانت الأسواق تكون عامرة بالشموع والفانوسيات، وتبقى مفتوحة، حتى الليل وتُباع بها الكثير من الشموع وخاصة أيام رمضان من أجل خروج الأولاد إلى صلاة التراويح، وعندما أصيبت البلاد بالأزمات، قل الاقبال على شراء الشموع حتى أنتهت إلى خمسة حوانيت فقط.[٦]

وكانت أيضاً تقام ليلة النصف على من يموت من الأمراء وتشعل فيها القناديل. وحدث في عام (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ان مات الأمير قراسنقر وعملت ليلة النصف، ولكن لم تشعل فيها القناديل وذلك بسبب الغلاء وقلة الأمطار.[٧]

---

(١) الصيرفي، أنباء الهصر، ص ٧٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٣، ص ٥٠٢، جـ ٤، ص ٢٩٥.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ١٤٩.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٤، ص ٣١٠.

(٥) ابن طولون، أعلام الورى، جـ ١، ص ٢٢٣.

(٦) قاسم عبده، أسواق مصر، ص ١٣.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٤، ص ٢٤٢.

وفي شهر رمضان كثيراً ما كان يوزع في هذا الشهر الصدقات والهبات من لحوم ونقود ولكن في سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م) قُطعت مرتبات الناس وأرزاقهم بسبب ضيق حال الدولة.[١]

ثانياً : الأثار الاجتماعية والديمغرافية للمجاعات

لقد نجم عن المجاعات والأوبئة المتعددة، التي ضربت المنطقة في العصر المملوكي آثار اجتماعية خطيرة تمثلت فيما يلي :

كان للوباء والمجاعة أثرٌ عظيم على الناحية الديمغرافية للبلاد والتركيب الطبقي، فماتت أعداد هائلة من السكان وشمل الخراب، أراضي وقرى مصر عامة [٢] وهاجرت أعداد كبيرة من أهالي الرملة وغزة والقدس ودمشق وحماة إلى الديار المصرية، هاربين من الغلاء ومن تمرلنك.[٣] وترتب على مثل هذه الهجرات خلو منطقة بلاد الشام من السكان وإزدحامهم في مصر والقاهرة، مما أدى بالتالي إلى المزيد من الأعباء على الدولة بسبب هذا الأمر وتضررت الأحوال الأقتصادية بسبب فقدان الأيدي العاملة الخبيرة في الزراعة والصناعة.

ولقد كان الموت عظيماً، حيث حُمل الأموات على الجمال، ورموا في الحفُر من غير غسل وتكفين، ومن كثرة الأموات، كانوا يوضعون في الحُفر على شكل مجموعات وتردُم مثل هذه الحفر، ومنهم من رُمي على الطرقات وأكلته الكلاب، وخلت القرى من سكانها[٤] ومن المحدثين من يعتقدأن من أسباب تناقص أعداد السكان إلى جانب الطواعين والمجاعات طغيان الصحراء على الوادي الخصيب[٥] ولم يقتصر الأمر على رحيل وهجرة سكان الإقليم المتمثل في بلاد الشام إلى المركز، بل

(١) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ٢، ص ٩١٤.

(٢) القلقشندي، مآثر الانافة، جـ ٢، ص ١٥٥. المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٤٤/١٤٥، المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ١، ص ٥١٠-٥١١.

(٣) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٢، ص ٩٧.

(٤) النويري، نهاية الأرب، جـ ٣١، ص٢٩٣/٢٩٤، المقريزي، السلوك، جـ ١، قسم ٣، ص ٨١٥، ابن حجر، أنباء الغمر، ص ١٥٤، ابن قاضي شهبه، تاريخ، جـ٣، ص٤٠، ٢٤، العيني، عقد الجُمان، جـ ٣، ص٢٩٩.

(٥) زقلمه، أنور، المماليك في مصر، ط١، ١٩٩٥، ص ٢٠.

تعداه إلى دخول تركمان وفلاحين بأولادهم ونسائهم إلى البلاد هرباً من قلة المطر والرعي وكان ذلك في سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٤م)[1] ولقد تناقضت أعداد القرى، إذا بلغت في سنة (٨٣٧هـ/١٤٣٣م) حسب إحصائية لديوان الجيش، قبليها وبحريها ٢١٧٠ قرية، في حين ذكرها المسبحيّ في أخبار مصر في سنتين، بأنها عشرة آلاف قرية، وهذا يدللُ على التفاوت بين الزمنين[2] والسبب في تقلص أعداد القرى، موت أعداد كبيرة من الفلاحين، وهروب آخرين بحثاً عن الطعام. فضلاً عن الهروب من الزراعة وظلم الحكام من ناحية اخرى[3] وكان الفلاح في تلك العصور يعاني من الذلة وقسوة العيش.[4]

ومن إحصاء الدور التي خلت من سكانها بعد زوال الطاعون في سنة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م) تبين أن معدل الدور الفارغة في كل حارة وزقاق، بلغ عشرين داراً، وفي حارة برجوان وحدها أربعين داراً، وبما أن القاهرة اشتملت على خمس وأربعين حارة وزقاقاً، فان عدد الدور الفارغة في هذه الحالة يكون تسعمئة وعشرين داراً عدا المخازن والخانات والفنادق.[5]

والحقيقة التي يخرج فيها الباحث، أن ثلث سكان الأقليم قد ماتوا بسبب الوباء والمجاعة، وقلت أعدادهم بشكل كبير، وقد كان الموت الهائل، يسبب في أحيان كثيرة، إنخفاض الأسعار بشكل كبير وكان إرتفاع معدل الوفيات، عائد إلى حدٍ كبير لنقص التغذية لدى شرائح واسعة من السكان[6] وفي طاعون سنة (٨٢٢هـ/١٤١٩م) إشتد أمر الفناء والغلاء في مصر، ومات من أهالي القاهرة والفلاحين نحو النصف [7] وفي سنة (٨٣٣هـ/١٤٢٩م) مات من أهل مصر نحو الثلث. والملاحظة

---

(١) ابن صصرى، الدُرة المضيئة، ص ٥٨.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ٢، ص ٩٠٩. السخاوي. الذيل التام، ص٩٠. الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٣، ص ١٣٨٢. الدمشقي. نخبة الدهر، ص ٢٣.

(٣) نبراوي، ، أسعار السلع الغذائية، ص ٣٩.

(٤) ابن الحاج، المدخل، جـ ٤، ص ٩.

(٥) عامر نجيب. الحياة الزراعية في مصر، ص ٨٣.

(٦) أشتور، التاريخ الإقتصادي، ص ٣٩٥.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٢، ص ٤٥، ٤٦.

الأهم التي نراها أن المجاعة والطاعون، كانت تقضي بشكل كبير على الأطفال وهم الأكثر عرضة للموت، والسبب في ذلك، هو فقدان أسباب المناعة لدى الأطفال، وعدم قدرة أجسادهم الغضة على مقاومة المرض وهذا الأمر سيؤدي بالتالي إلى شيخوخة المجتمع، فتنعدم فئة الأطفال والفتيان، حيث يؤدي هذا إلى تخلخل ديمغرافي للسكان، وتخلخل في التركيب العمري «وبلغ عدة من يّرد الديوان من الأطفال خاصة نحو أربعة الاف طفل[1] وتخلخل البناء الديمغرافي في بلاد الشام أيضاً، بسبب الجوع، حيث ماتت أعداد هائلة بحلب وحماة [2] وخلت الضياع من أهلها، والقرية التي كان عدد سكانها مائة شخص لم يبق فيها الا العشرون، يجدهم الحراس في مزارع الفول، يأكلون منه حتى يموتون [3] وخلت القرى من السكان وبقيت الزروع على أصولها، لا تجد من يقوم بحصادها[4] ورحل جماعة كبيرة من أهالي مصر عنها إلى الأقطار المختلفة من شدةالغلاء، وتخلخل أمر الديار المصرية.[5]

أما عند المقريزي، "فقد صار الناس، ثلاثة أثلاث الغني إفتقر، والمكتسب لا تكفيه نفقته، والفقير الذي كان يسأل عن الرغيف أصبح يطلب اللقمة أو اللبابة[6] «وتفقر خلائق ممن ليس لهم مروءة، وأخذوا في السؤال، واتضع حال جماعة ممن لهم شهرة أو أسم، لعظم القحط وطول مكثه في هذه السنين الثلاث[7] مما سبق نلاحظ الأثر الكبير الذي ترتب على المجاعة والوباء على المنطقة.

---

(١) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص ٤٤٤.

(٢) الكتبي، عيون التواريخ، جـ٢، ص ٢٦٧، ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص ١٧٣.

(٣) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٧٢.

(٤) ابن حجر، أبناء الغمر، جـ ٧، ص ٧-٨، ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ ٢، ص ٢٢٩، السخاوي، الذيل التام، ١، ص ٤٦٦.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٤٨، حوادث الدهور، جـ ٢، ص ٢٢٧.

(٦) الصيرفي، أنباء الهصر، ص ٨٠٨.

(٧) ابن تغري بردي،حوادث الدهور، جـ ٢، ص ٢٣٤.

ثالثاً : الآثار العلمية والثقافية للمجاعات

الإقتصاد القوي والأستقرار السياسي والأمني والرخاء، ينعكس إيجابياً على مختلف النواحي العامة لأي بلد من البلدان، فالمنطقة التي تتمتع بإزدهار ورخاء وأمن، كثيراً ماتهتم بالتطوير العلمي والثقافي، والاهتمام بالإنسان وتطويره ثقافياً وعلمياً، وتسارع إلى تخصيص الموارد اللازمة للنهوض بالثقافة والعلم.

وكان العصر المملوكي في فتراته الأولى، قد إهتم بالمنشآت العلمية من زوايا ومساجد وخوانق، وأوقاف على المدارس والخدمات الاجتماعية المختلفة، وتمتع العلماء والفقهاء، بالإحترام والتبجيل، وأهتم السلاطين ببناء المدارس وغيرها، وكان ذلك ناتجاً عن الشعور الديني القوي الذي ساد الدولة المملوكية، إلى جانب رغبة هؤلاء الأمراء والسلاطين بالمحافظة على أموالهم، عن طريق الوقف لذريتهم من بعدهم، خوفاً من المصادرات التي كانت تقوم بها الدولة.

ولكنّ الأمور اختلفت فيما بعد، فلقد تعرض الفقهاء والعلماء والحياتين الثقافية والعلمية بشكل خاص إلى تدهور واضح في أواخر هذا العصر، وخاصة في فترات الأزمات الأقتصادية والأوبئة والمجاعات التي ما انفكت تبطش بالناس.

فالأوقاف على المدارس كانت عظيمة، حيث أوقفت عليها قرى بأكلمها وكانت أم السلطان/الأشرف شعبان قد أوقفت ما مساحته ٤٩.٨ أفدنه على المدرسة التي أنشأتها[1] واوقفت قطعة أخرى من الأراضي على الخانقاة الشيخونية.[*]

---

(١) ابن الجيعان، بد الدين ابو البقاء محمد بن شاكر (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، التحفة السنية بإسماء البلاد المصريه، القاهرة، ١٩٧٤، مكتبة الكليات الأزهرية، ص ٨.

(*) المصدر نفسه، ص ٦٨.

الخانقاة الشيخونية - هذه الخانقاة في خط الصليبيه، خارج القاهرة تجاه جامع شيخو، انشأها الأمير الكبير سيف الدين شيخو العمري في سنة ٧٥٦ هـ، كان موضعها جملة قطائع أحمد بن طولون، وكانت مساكن للناس اشتراها الأمير شيخو من أصحابها وبنى بها هذه الخانقاة، أنظر المقريزي، الخطط، جـ ٣، ص ٤١٢.

وقام كثيرٌ من الأمراء بوقف المدارس، فسيف الدين فارس الدوادار، اوقف(*) المدرسة الفارسية سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) على مدرسين وعشرة من الفقهاء وعشرة من القراء والأيتام، وفرض لهم ربع قنطار من الخبز، واوقف عليها الحوانيت، ووزع عليهم الرواتب، لكل شيخ ثمانين درهماً في الشهر، وأما معلوم الطلبة فبلغ خمس وأربعون.(١)

وكان السلطان الأشرف برسباي من السلاطين الذين اهتموا بالعلم ووسع على الطلبة في أيامه، وحظي بمدح العلماء له لهذا الاهتمام(٢) ونظام الوقف في أوقات الرخاء، هو الذي يثبت أركان المدارس ويدّعم نظامها، وكثرت الأراضي المحبوسة على المدارس والمساجد والزوايا، في عهد الناصر محمد بن قلاوون، وبلغت مائة وثلاثون ألف فدان، وشملت الأوقاف إلى جانب الأراضي كثيراً من البيوت والأسواق والمعاصر وغيرها.(٣)

ومن الأمثلة على الأوقاف، خانقاة سعيد السعداء،(*) التي اوقفها السلطان

(*) المدرسة الفارسية: هذه المدرسة بخط الفهادين، من أول العطوفي بالقاهرة، كان موضعها كنسية تعرف بكنيسة الفهادين، فلما كانت واقعة النصارى،في سنة ست وخمسين وسبعمائة، هدمها الأمير فارس الدين البى قريب الأمير سيف الدين إلى ملك الجوكندار، وبنى هذه المدرسة، ووقف عليها وقفاً بما تحتاج اليه،
أنظر : المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٣٦٦.

(١) بدران، عبد القادر، منادمة الاطلال ومسامرة الخيال، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق،١٩٦٠ ص ١٣٦، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت٩٢٢هـ /١٥١٦م) الدارس في تاريخ المدارس تحقيق جعفر الحسن، ط الترجي دمشق ١٩٤٨،جـ ١، ص ٣٢، وسيشار إليه لاحقا بـ النعيمي الدارس.

(٢) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد اليمني، (٨٤١ هـ/١٤٣٧م)البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٠، جـ ١، ص ١٦٢. وسيشار إليه لاحقا بـ الشوكاني البدر الطالع.

(٣) ابن ايبك، كنز الدرر، جـ ٩، ص ٣٩١.

(*) خانقاه سعيد السعداء : هذه الخانقاة بخط رحبة باب العيد من القاهرة، كانت تعرف اولاً في الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء، وهو الاستاذ قنبز، وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة ولما حكم الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب بعد موت الخليفة العاضد وغير رسوم الدولة الفاطمية، عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، انظر المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٤٠١.

صلاح الدين، حيث كان الصوفي يقيم فيها سنوات، ولو غادرها وعاد إليها لوجد ما كان له من معلوم فيها[1] وكانتَ الأوقاف على المدارس يوزع فيها خبز، حيث يصرف فيها ألف رغيف يومياً، وكان فيها أعداد كبيرة من المجاورين بلغ تعدادهم حوالي السبعمائة، وعندما ينزل فيها الطالب يُعين له رزقه من الخبز.[2] ولعبت الأوقاف دوراً مهماً في أوقات الأزمات، حيث كثرت الأوقاف في أوقات الأوبئة والطواعين، مثل وقف الطرحاء الذي أنشأه الظاهر بيبرس، من أجل غسل وتكفين الموتى.[3]

وكثيراً ما كان يُقدم الطعام للمدارس مجاناً في رمضان، وتوزع كذلك في الأوبئة والأزمات[4] وكانت توزع الغلال والأموال في الفقهاء والصوفية.[5]

ولكنّ الأمور اختلت فيما بعد، وتأثر العلماء والفقهاء والصوفية من الأزمات الاقتصادية التي تمر بها البلاد، ومن المماليك ووقوفهم للعلماء والفقهاء، ففي سنة (٧٩٣هـ/١٣٩٠م) طلب السلطان مال الأوقاف، وطلب من الفقهاء خمسين ألف درهم فرضها على أملاك المدارس الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلـه [6] ولقد تأثرالصوفية نتيجة لهذا الأمر، ففي سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٤م) «كان سيف الدين يلبغا السالمي» ناظراً على الخانقاة الصلاحية، وكان عدد من بها من الصوفية ثلاثمائة شخص، فصار الأمير يُنزل في الخانقاه من يريد، فأزدادت أعداد الصوفية فيها، وعجز الوقف عن الوفاء حيث كانت البلاد تعاني من القحط، وخاصة الأماكن

---

(١) ابن كنان، محمد بن عيسى (ت ١٠٧٤ هـ/١١٥٣م)، حدائق الياسمين، بذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صالح، دار النفائس، ط١، ١٩٩٢م، ص ١٤٦. وسيشار اليه لاحقا بـ ابن كنان حدائق الياسمين.

(٢) ابن كنان، المروج السندسية في تلخيص تاريخ الصالحية، تحقيق محمد احمد دهمان، د.ط ١٩٧٤، ص ١٠٦. وسيشار اليه لاحقا بـ ابن كنان المروج السندسية.

(٣) أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية،مصر، ١٩٨٠، ص ١٠٥.

(٤) العلبي، أكرم، خطط دمشق، على مدى ألف عام من سنة ٤٠٠هـ إلى ١٤٠٠هـ، لدور القرآن والحديث والبيمارستان والجوامع الكبرى، دمشق، دار الطباع ١٩٨٩م، ص ١٤١.

(٥) المقريزي، السلوك،جـ ٣، قسم ١، ص ٩٨.

(٦) ابن قاضي شهبه، تاريخ، جـ ٣، ص ٣٧٥.

الموقوفة على الخانقاه، فقطعت الحلوى والصابون والكسوة عنهم.[1]

وفي سنة (٧٩٧هـ/١٣٩٤م) أديرت الجراية على الفقهاء بالشامية والبرانيّة، بعدما كانت مقطوعة خمس سنين وأربعة أشهر[2] وفي سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٦م) وبسبب الغلاء الذي كان، قُطعت جراية الخبز عن الفقهاء.[3]

وكان الأمراء كثيراً ما يعمدون إلى طلب الفقهاء ومناقشتهم في موضوع حلّ الأوقاف والأراضي عن الجوامع والمساجد والزوايا والربط بسبب الكلفة العالية، والمبالغ الطائلة التي تصرف لهم في كل سنة، وأنها هي التي أضعفت جيوش المسلمين، ووقفُ لهم الفقهاء متعللين بأن أوقاف الجوامع والمدارس والمساجد والتي، هي وقفُ على الشريعة وفقهاء الإسلام، والأئمة والمؤذنين لا يجوز التعرض لحلها.[4]

وتمادى المماليك الجلبان في طلب إقطاعات الفقهاء، والسبب في ذلك قيام السلطان في سنة (٨٥٦هـ/١٤٥٢م) بإخراج إقطاعات زين الدين الاستادار الموقوفة عليه، وعلى جوامعه ومدارسه، وتفريقها على الكثير من المماليك السلطانية،[5] وتتبع القضاة والفقهاء فيما تحت أيديهم من الأوقاف وانطلقت ألسنة السوء فيهم.[6]

وفي سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) قُطعت مرتبات اللحوم التي كانت للفقهاء والمتعممين كلهم، ورسمَ عليهم «وحصل للفقهاء والمتعممين غاية الضرر والبهدله».[7]

---

(١) ابن قاضي شهبه، تاريخ، جـ٣، ص ٥٤٦، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص ٤٠٧/٤٠٨.

(٢) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٥٤٦، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ١، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(٣) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٥٨٥.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم ١، ص ٣٤٦-٣٤٧، الكرمي، مرعي بن يوسف ابن أبي بكر (ت ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م) نزهة الناظرين فيمن وليَ مصر من الحكام والسلاطين، مركز الوثائق الجامعة الاردنية، مخط، ورقة ٨٥.

(٥) ابن تغري بردي،حوادث الدهور، جـ٢، ص ٤١٠.

(٦) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم ٢، ص ٧٢٨.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٢-٢٣.

ولم يقتصر الأمر على قطع مرتبات اللحوم، بل تعداه في سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) أن قام السلطان بقطع رواتب جماعة كبيرة من الفقهاء، مابين لحم وقمح وجوامك للفقهاء، حيث كثر الدعاء عليه[١] وكان الفقهاء والقضاة كثيراً ما يلزمون بجمع الأموال من المدارس، ففي سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م) ألزم مباشروا، مدارس دمشق بجمع مبلغ ألف دينار، قام الفقهاء بجمعها[٢] وتعرض الفقهاء والعلماء للاهانات، فقبض عليهم واهينوا وألزموا بالأموال.[٣]

وفي سنة (٨٥٨هـ/١٤٥٤م) ضرب الفقهاء والمتعممين على أيدي المماليك، واخذوا خيولهم، وركب المتعممون، البغال والحمير، كلُ واحد حسب مقامه[٤] وكانوا يبهدلون القضاة والعلماء بالضرب وينزلونهم عن بغالهم.[٥]

وكان لاستيلاء أهل الدولة، على الأراضي الموقوفة في مصروالشام أثراً سيئاً على الفقهاء «لذلك صار أسواء الناس حالاً في هذه المحن، التي حدثت سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م) الفقهاء لخراب الموقوف عليهم وبيعه، وإستيلاء أهل الدولة على الأراضي.[٦]

أما الطاعون، فقد تسبب في موت أعدادٍ كبيرةٍ من علماء وفقهاء البلاد، فابن بطوطة الذي مرَّ بالقدس، أثناء إنتشار الطاعون في الأردن وفلسطين سنة (٧٤٩هـ/ ١٣٤٥م) قال : إنَّ من كان يعرفَه من المشايخ قد إنتقل إلى رحمة الله تعالى، ومثل ذلك في غزة، ولاشك أن موت الفقهاء والعلماء كان له تأثيره على الحركة العلمية وتطورها.[٧]

---

(١) المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٥٦.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٤ قسم ١، ص ١٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٤) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ٢، ص ٤٨٦.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٢٤.

(٦) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص ١٩٧.

(٧) غوانمه، يوسف، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب بلاد الشام، مجلة دراسات تاريخية، عدد ١٣، مجلد ١٦، ص ٨١.

ولم يقتصر الأمر على الفقهاء فقط بل تعداه إلى الطلاب، ففي سنة (٨٢٥هـ/١٤٢١م) كان الحضور إلى المدارس قليلاً، وذلك بسبب قلة الجوامك المصروفة للطلاب وسبب ذلك الآفات التي كانت في المحاصيل الزراعية في السنة التي سبقت هذه السنة، حيث لم يُفرق بها شيء.[1]

وفي سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) قام السلطان ببيع الأملاك والأرزاق الموقوفة على المدارس، من أجل تحصيل مال للنفقة على الجند، متعللاً بعجزه عن تحصيل المال، وأن الخزائن خالية من الأموال.[2]

ولقد وصُف الفقهاء وطلاب العلم بأنهم «خرجوا من هذه المحنّ ما بين ميتٍ أو مشتهي الموت بسبب ما حلّ بهم من البلاء، وقلت جوامكهم، ولم تعد تكفيهم، وساءت أحوالهم، وخصّهم من ذلك أعظم البلوى».[3]

أما النواحي الثقافية، فقد تأثرت هي الأخرى، بالأحوال العامة للبلاد، وأصبح الشعراء، وعامة الناس يتندرون بها، وينظمون فيها أشعاراً، وذلك سخرية وتنفيساً للواقع، الذي يعيشونه ففي سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٨م) وبسبب توقف النيل، كانت العامة تقول «سلطاننا ركين، ونائبنا دقين، والماء يجيء من أين»، وقالوا «أخرجوا لنا الأعرج، يجيء الماء يدحرج.[4] والمقصود بالأعراج هنا الناصر محمد بن قلاوون.

وقد شارك الكثير من الشعراء في وصف الزلازل والأوبئة والطواعين والقحط، ففي سنة (٨٥٤هـ/١٤٥٠م) إنتشرت موجة من الغلاء وارتفعت أسعار الخبز، ووقع القحط في سائر الغلال، وقد رثى بعض شعراء العصر الخبز بهذه الأبيات :

---

(١) النعيمي، الدارس، جـ١، ص ٢٠.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٤١.

(٣) المقريزي، اغاثة الأمة، ص ١١٤، السلوك جـ٤، ص ٢٧-٢٨.

(٤) المقريزي، درر العقود الفريدة، في تراجم الاعيان المفيده، تحقيق محمد كمال الدين، عالم الكتب بيروت، ١٩٩٢م، قسم١، ص١١٩.

(الكامل)

قسماً يلوح الخبز عند خروجه   من فرنه وله الغداة فوار

ورغائفٌ منه تروقك وهي في   سُحب النفال كأنها أقمارُ

من كل مصقول السوالف أحمر   الخدين للشونيز فيه عذار.[1]

ومن الآثار الثقافية والعلمية كذلك، أن كتب العلم، قد رخُصت حتى أنه كان ينادى عليها بالأحمال، ويباع الحمل منها بأرخص الأثمان.[2]

مما سبق نلاحظ، آثار المجاعة والوباء على الحياة العلمية والثقافية، والعلاقة المطرَدة في جميع مناحي الحياة والارتباط الوثيق فيما بينها.

رابعاً : أثر المجاعات على العمارة والفنون

لكي نتعرف على عظمة دولة من الدول، ليس أمامك الا النظر إلى العمائر والفنون، التي تشتهر فيها، فكلما رأيت فناً وذوقاً، كلما دّل ذلك على إزدهار الحضارة فيها، فالفن والعمارة، هما دليلك، للايغال في مستوى الرُقي الحضاري لشعب من الشعوب.

وفي عصر المماليك، إزدهرت الفنون والعمارة، وخاصة في الفترات الأولى من الحكم، بحكم الثروة والمال، والذين يكونان عصب الحياة لأي مجتمع، وعندما يجتمع المال والثروة، يكون التأنق والتفنن، وذلك لأن الإنسان المبدع، عندما يجد التشجيع والأجر المناسب، يبذل ما بجهده، للوصول إلى العظمة والكمال في عمله.

شهد العصر المملوكي، حركة عمرانية كبيرة، تمثلت في العديد من المساجد والمدارس، والأضرحة، أشتملت على رفعة الذوق والرغبة في الأبداع، ففي سنة (٧١٨هـ/١٣١٨م) قام الملك الناصر محمد بن قلاوون، بإنشاء مسجدٍ وعمرَه، أحسن عمارة، وعمل فيه الرّخام الملون، وعمرً فيه قبّة جليله، ومقصورة جميلة الصنعة

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٢، ص ٢٨٤-٢٨٧. للمزيد، أنظر، محمد رزق اسماعيل، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، دار الحمامي للطباعة، ط١، ١٩٦٥، القسم الثاني،جـ ٤.

(٢) قاسم عبده، اسواق مصر، ص ٦٨.

ولم يقتصر الأمر على قطع مرتبات اللحوم، بل تعداه في سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) أن قام السلطان بقطع رواتب جماعة كبيرة من الفقهاء، مابين لحم وقمح وجوامك للفقهاء، حيث كثر الدعاء عليه[1] وكان الفقهاء والقضاة كثيراً ما يلزمون بجمع الاموال من المدارس، ففي سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م) ألزم مباشروا مدارس دمشق بجمع مبلغ ألف دينار، قام الفقهاء بجمعها[2] وتعرض الفقهاء والعلماء للاهانات، فقبض عليهم واهينوا وألزموا بالأموال.[3]

وفي سنة (٨٥٨هـ/١٤٥٤م) ضرب الفقهاء والمتعممين على أيدي المماليك، واخذوا خيولهم، وركب المتعممون البغال والحمير، كلٌ واحد حسب مقامه[4] وكانوا يبهدلون القضاة والعلماء بالضرب وينزلونهم عن بغالهم.[5]

وكان لاستيلاء أهل الدولة، على الأراضي الموقوفة في مصر والشام أثراً سيئاً على الفقهاء «لذلك صار أسوء الناس حالاً في هذه المحن، التي حدثت سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) الفقهاء لخراب الموقوف عليهم وبيعه، وإستيلاء أهل الدولة على الأراضي.[6]

أما الطاعون، فقد تسبب في موت أعدادٍ كبيرةٍ من علماء وفقهاء البلاد، فابن بطوطة الذي مرّ بالقدس، أثناء إنتشار الطاعون في الأردن وفلسطين سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٥م) قال: إنّ من كان يعرفّه من المشايخ قد إنتقل إلى رحمة الله تعالى، ومثل ذلك في غزة، ولاشك أن موت الفقهاء والعلماء كان له تأثيره على الحركة العلمية وتطورها.[7]

---

(١) المصدر نفسه، جـ٢، ص ١٥٦.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٤ قسم ١، ص ١٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٤) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ٢، ص ٤٨٦.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٢٤.

(٦) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص ١٩٧.

(٧) غوانمه، يوسف، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب بلاد الشام، مجلة دراسات تاريخية، عدد ١٣، مجلد ١٦، ص ٨١.

وفي صدر الجامع مقصورة من الحديد.[1] ومن المنشآت، الخانقاه التي بناها الأمير قوصون، في سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) وقرّر فيها جماعة من الصوفية، ورتب لهم الطعام واللحم والخبز في كل يوم، والزيت والصابون، وبقيت عامرة، إلى أن كانت المحن سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) حيث أُبطل الخبز والطعام منها، وصار يُصرف لمستحقيها مال من نقد مصر وتلاشي أمرها، بعد أن كانت من أعظم جهات البر.[2]

ولمّا كان إهتمام سلاطين الدولتين البحرية والبرجية، بتشييد المساجد والمدارس، والأضرحة بالغاً، إمتازت هذه العمائر وخاصة في فترات الرخاء والاستقرار، بضخامتها ومتانتها والتأنق في صنعها[3] وإمتازت العمائر الدينية، بضخامة المداخل والقباب، ويزداد إرتفاع القباب في عهد المماليك البرجية، وكان الغرض من الأرتفاع، هو إضفاء المزيد من الجلال والهيبة على المبنى الديني، وأخذت القبة أشكالاً عديدة في ذلك العصر، كان أكثرها على شكل الخوذة.[4]

وبسبب ضرب المجاعات ولمرات عديدة للمنطقة، نلاحظ أن العمائر المملوكية في الفترة الثانية، إختلفت عما كانت عليه في الفترة الأولى، فقد أصبح هناك صغر في مساحة الأبنية والعمائر الدينية، وقد إستتبع صغر حجم البناء، ضعف الإيوانات، وخاصة الشمالي والجنوبي، وكذلك ضيق حجم الصحن في هذه الفترة، حيث غُطى بسقف خشبي، يتوسطه فتحة مثمنة الشكل، وكان الصحن منفصلاً عن باقي الإيوانات فيجعله منخفضاً عنه، وإمتازت عقود الإيوانات بزخرفة خواصرها بنقوش نباتيه دقيقة محفورة في الحجر.[5]

وفي فترات الرخاء، كان السلاطين يبالغون في عملية البناء والتنميق وكانت تكاليف البناء غاية في الأرتفاع. فهذا المؤيد شيخ يبادر إلى بناء مسجد في سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م) وأنتهي العمل فيه في سنة (٨٢٤هـ/١٤٢١م) بلغت تكاليفه ما

---

(١) ابن ايبك، كنز الدرر، جـ ٩، ص ٣٩١، المقريزي، الخطط، جـ٣، ط بولاق، ص ٣٢٥. المقريزي، المقفى، جـ٧، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) المقريزي، المقفى الكبير، جـ٣، ص ٤١٩.

(٣) علام، نعمت اسماعيل، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، د.ط، د.ت، ص ٢٧٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٧٨.

(٥) ماهر، سعاد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ٤ أجزاء، وزارة الأوقاف، جـ ٤، ص ٢١٩-٢٢٠.

يقارب السبعين ألف دينار واستمر العمل فيه ست سنوات، وكانت المساجد تتكون من واجهات أربعة مرتفعة النوافذ، تُحلى بالرخام، ويُغطى كل شباك فيها بمقرنص واحد، وكانت الإيوانات تملأها الزخرفة من الأرض حتى السقف وتُكسى الجدران بالرخام الملون حتى إرتفاع المحراب، وكان المحراب يُكسى بالرخام المتعدد الألوان، والمنبر مصنوعٌ من الخشب المطعم بالعاج[1] وقد أُستخدمت الفسيفساء الرخامية والصدف في زخرفة المحاريب، إلى جانب إهتمامهم بإستخدام الحجارة الملونة، وخصوصاً الصفراء والحمراء الداكنة، وعمل التجاويف، والحنايا العمودية، وكذلك إستخدم الرخام الملون في الأرضيات.[2]

أما في أوقات الأزمات والمجاعة، فقد كانت الأحوال العامة في الدولة تنعكس على العمارة، وبالرغم من عدم وجود عمائر كثيرة في فترة الأزمات الا أنه أشير في بعض المراجع، إلى عمارة حدثت في سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) حيث كانت البلاد تعاني من طاعون ومجاعة، وكان قد بُدىء بعمارة مسجد (أق سنقر).

والملاحظة التي نخرج بها، أن المآذن والمحاريب والتي كانت تزخر بزخرفة كاملة، قد خلت تماماً في هذا المسجد من الزخرفه، بالإضافة إلى وجود جامع الأمير شيخون والذي بُني تقريباً في نفس الفترة، حيث خلت الأبواب والتي هي من الحجارة، من الزخارف، وكانت الأرضيات مغطاة ببلاطات حجرية، متوسطة الحجم، ولا توجد فيها أي تركيبات حجرية أو رخامية، وإذا وجد في صحن المسجد، زخرفة أو رخام، فإنما هي عبارة عن ألواح رقيقة من الرخام الأبيض والأزرق.[3]

وفي سنة (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) عانت البلاد من مجاعة شديدة، وكان قد بُدي بعمارة، مسجد الأمير لاجين السيفي، حيث إمتاز هذا المسجد عن غيره، بصغر حجمه، إذ يبلغ طوله (٢٥ متراً) وعرضه (٢١) متراً، ويتكون من صحن مكشوف، ينخفض عن باقي الأروقة وقد وُجد في هذا المسجد أعمدة مختلفة الأشكال، يُستدل منها على إنها أخذت من مباني قديمة، ولم تُصنع خصيصاً للمسجد.[4]

---

(١) المرجع نفسه، ص ٩٨.

(٢) زغلول، عبد الحميد، سعد، العمارة والفنون في دولة الإسلام، دار المعارف الإسكندرية، ١٩٨٦، ص ٤٦٥-٤٦٦.

(٣) ماهر، سعاد، مساجد مصر، ص ٢٤، ٢٥٢، ٢٥٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧٨.

وحدث تطورٌ سلبي آخر على العمار المملوكية، وذلك عن طريق تحول المسجد ذي الصحن الأوسط المركزي، إلى مسجد الأواوين، الذي تحول إلى مدرسة، ومع مرور الوقت طغت الأواوين على الصحن في نظام الجامع، إلى أن بلغ الأمر أن أُستغني عن الصحن في أواخر أيام المماليك، ولا بأس أن يكون هذا الطراز الصغير، نتيجة للأزمات الاقتصادية والمجاعات التي عانت منها الدولة المملوكية[1] ومن الميزات الأخرى التي طرأت على العمارة المملوكية، بما يخص الصحن أيضاً، أنه أُلغي من بعض المساجد والمدارس أو غُطي بسقف في بعضها الآخر.[2]

وكان السلاطين يولون العمائر والفنون جُلّ إهتمامهم، فقد كان الأشرف شعبان في سنة (٧٧٨هـ/١٣٧٦م) مهتماً بالفن والعمارة، ومشى أرباب الكمالات في زمانه من كل علم وفن وقصده كل العاملين بالفنون والمُلَح، ولم يُقل من الإحسان إليهم وقولته المشهورة دليل على ذلك فقد قال : أفعلُ هذا لئلا تموتَ الفنون في دولتي وأيامي.[3]

ومن العمائر المهمة أيضاً، جامع الأمير قوصون، حيث كان يتكون من مُربع كبير، يتوسطه، صحن تحيط به الأروقه، من جميع الجهات والإيوان، يتكون من أعمده رخامية، تعلوه قبة جميلة التصميم وكانت النوافذ مليئة بالزخارف المعشقة بالزجاج الملون، والمنبر من الخشب المطعَّم بالعاج والصدف والأبنوس، وكان المسجد يضاء بمجموعة من القناديل والمشكاوات الزجاجية المموّه بالمينا.[4]

ومن المنابر المهمة، منبر جامع ابن طولون، بالقاهرة، الذي أمر بعمله السلطان لاجين، سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٧م) ويتألف من عشرات الحشوات الهندسية، وخاصة الأطباق النجمية، التي تزخر بالزخارف النباتيه الدقيقة.[5]

ومن العمائر الدينية، خانقاة ركن الدين بيبرس، والتي بنيت في عام (٧٠٦هـ-١٣٠٦م)، وكمُلت عمارتها، في سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) حيث قُرر فيها اربعمائة

(١) زغلول، سعد عبد الحميد، العمارة والفنون، ص ٤٧.

(٢) الريحاوي، عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية، خصائصها، وآثارها في سوريا، دمشق، ١٩٧٩، ص ١٥٨.

(٣) قحطاني، راشد، أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، الرياض، ط١، ١٩٩٤، ص ٦٠.

(٤) ماهر، سعاد، مساجد مصر، ص ١٩٥.

(٥) حميد، عبد العزيز، الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، ص ٤١.

صوفي، وكان فيها مطبخ ويفرق فيها اللحم والطعام على المدرسين، واستمرت الخانقاة إلى ان شرقت أراضي مصر، بسبب قصور النيل، وأُغلق المطبخ بسبب ذلك، وفي سنة (٧٩٦ هـ/١٣٩٣م) بطل الخبز وأغلق المخبز.[١]

ومن الجوامع التي كانت ودثرت، بسبب الغلاء، جامع قيدان [*] سنة(٧٧٦هـ/١٣٧٤م) أيام الملك الأشرف شعبان حيث خربت كثيرٌ من النواحي، «وتعطل المسجد في هذا الغلاء».[٢]

ومنها أيضاً، رباط البغدادية [*] الذي خرب، بعد سنوات المحن سنة (٨٠٦ هـ/١٤٠٣م) وتلاشت أموره.[٣]

ومن العمائر التي دثرت، بسبب الغلاء، منطقة يُقال لها، أرض الطبّاله، منسوبة إلى أمراة، مغنية تعرف بنشب وقيل بطرب وكانت مغنية للمستنصر الفاطمي، حيث منحها هذه الأراضي، وبنيت فيها الدور والبيوت وهي من القاهرة، وكانت عامرة، ولكنها خربت في سنة (٦٩٦ هـ/١٢٩٦م) بسبب الغلاء والوباء، الذي حدث في سلطنة الملك العادل كتبغا ولم يبق فيها أنسان.[٤]

---

(١) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص ٤٠٥.

(*) جامع قيدان، هذا الجامع خارج القاهرة على جانب الخليج الشرقي، ظاهر باب الفتوح، مما يلي قناطر الاوز، تجاه أرض البُعل. كان مسجداً قديم البناء، فجدده بهاء الدين قراقوش الأسدي، في محرم سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وجدد حوض السبيل الذي فيه، ثم ان الأمير مظفر الدين قيدان الرومي عمل به منبراً لأقامة خطبة الجمعة، وكان عامراً بعمارة ما حوله. أنظر المقريزي، الخطط، جـ٣، ص ٢٢٦.

(٢) المقريزي، الخطط، جـ٣، ص ٢٢٦.

(*) رباط البغدادية، هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر، تجاه خانقاه بيبرس وهو بيناء تذكاري، بنته تذكار باي خاتون ابنة الظاهر بيبرس، المقريزي، الخطط، جـ٣، ص ٢٢٣.

(٣) المقريزي، الخطط جـ٣، ص ٢٢٤. أنظر أيضاً سعيد عبد الحميد، العمارة والفنون، ص ٤٧١-٤٧٢.

(٤) الصديقي البكري، ابو السرور بن محمد بن علي بن عبد الرحمن بن احمد بن محمد (ت ١٠٠٧هـ / ١٥٩٨م) قطف الازهار من الخطط والاثار، مخطوط في الجامعة الأردنية، رقم الشريط ٢٣٠، ورقة ١١٤، والمسمى مختصر الخطط.

وبقيت المنطقة خراب، حتى سنة (٧٢٠ هـ/١٣١٩م) حيث أخذ الناس، يسكنون فيها، وقاموا بعمارتها، وكان فيها أسواق وجوامع وأخذ الناس يتنزهون فيها، وبقيت عامرّة، إلى ان حدث الغلاء في سنة (٧٧٧ هـ/١٣٧٥م) أيام الأشرف شعبان، وخربت حاراتها ودثرت منذ سنة (٨٠٦ هـ/١٤٠٣م) وصارت كيمان. [١] ليس فيها قاطنٌ، ولا أنيس، حيث قال احدهم :

(الكامل)

واذا تأملت الديار وجدتها تشقى كما يشقى الرجالُ وتنعمُ [٢]

وكذلك من المناطق التي دثرت، بلده يقال لها، «عُنية الأمراء» وتعتبر من محاسن القاهرة، كانت كثيرة العمارة، اتخدها الناس مكانا، للهو والغناء، يوجد فيها سوق لبيع البقر والأغنام وهو من الأسواق المشهورة، وكانت كثيرة الفساد، وقيل انه تلف فيها سنة (٧٠٨ هـ/١٣٠٨م)، وبسبب زيادة النيل، ثمانين الف جرة خمر، كانت عامرة بالمساكن والأسواق والناس، وظلت كذلك حتى سنة (٨٠٦ هـ/١٤٠٣م) عندما حدثت المحن والغلاء، حيث رحل الناس عنها، وأقفرت دورها، وخلت من ساكنيها، ولم يبقَ فيها سوى طاحون واحدة لطحن القمح، بعد ما كان فيها ما يزيد عن ثلاثين طاحوناً [٣] أما مدينة الاسكندرية، والتي كانت من أجود البلاد ترتيباً وبناءً فإنها في سنة (٨٥١ هـ/١٤٥٠م) خربت وخلا أكثرها من العمارة، مع كثرة أمراض أهلها، بسبب مائها. [٤]

وحتى يستدل على مدى التقدم الفني والمعماري الذي شهدته القاهرة في تلك الفترة وصف المقريزي لها بقوله «واتصلت عمائر مصر والقاهرة، فصار بلداً واحداً، يشتمل على البساتين والمناظر والقصور، والدور والرباع والقياسر والأسواق، والفنادق، والخانات والحمامات والشوراع، والازقة والدروب، والخطط والحارات، والأحكار، والمساجد والجوامع، والزوايا، والربط، والمشاهد، والمدارس،

(١) المصدر نفسه، ورقة ١١٧.

(٢) ابن ايبك، كنز الدرر، جـ ٩، ص ٣٢٠.

(٣) الصديقي البكري، قطف الأزهار، ورقة ١١٧، للمزيد عن العمارة، راجع النعيمي، الدارس، جـ ١، ص ٤٩٠، جـ ٢، ص ١٩٣.

(٤) القلصادي، رحلة القلصادي، ص ١٢٥.

والترب، والحوانيت، والمطابخ، والشون، والبرك، والخلجان، والرياض، وما زالت هذه الأماكن، في كثرة العمارة، وزيادة العدد، تضيق بأهلها لكثرتهم وتختال عجبا بهم، لما بالغوا في تحسينها، وتأنقوا في جودتها، وتنميقها، إلى ان حدث الفناء الكبير في سنة (٧٤٩ هـ/١٣٤٧م) فخلا كثير من هذه المواضع، وبقي كثيرٌ أو ادركناه."[١]

وفي أواخر القرن الثامن، توالت المحن على مصر القاهرة، فذوى بهاؤها، ودرست آثارها، وغلبت عليها مناظر الخراب الموحشة زهاء، نصف قرن.[٢]

من النص السابق نلاحظ أن العمارة الهائلة، التي كانت في العصر المملوكي والأزدهار الكبير الذي شهدته المنطقة، وكثرة السكان والأموال قد أصابها الضمور وبدت متواضعة وبسيطة.

وهكذا نستطيع القول، ان الرخاء، والأزدهار والأمن وتشجيع علية القوم، يؤدي إلى الأبداع والأبتكار، وهذا دليل على الرّقي الحضاري للمجتمعات، ولكن الإنسان، حينما يتعرض إلى الجوع والخوف والمرض والحرمان، يؤدي ذلك إلى انحطاط في الذوق والفن العام، وتندثر بعض العمائر، نتيجة للفقر والجوع والمرض، وتزول آثار الحضارة.

ومن الفنون المشهورة في تلك الفترة، صناعة التكفيت، وهي تطعيم الأواني النحاسية، بالذهب والفضة، والنقش عليها بآيات قرآنية أو رسوم حيوانية، وأشكال متعددة من الطيور،[٣] وقد اضمحلت صناعة التكفيت منذ القرن التاسع الهجري، بعد اغارات المغول على بلاد الشام، ونهب تيمورلنك، لمدينة دمشق والذي جلب الخراب للمراكز الصناعية الكبيرة،[٤] وكانت صناعة التكفيت قد بلغت أوجها في القرن (٨ هـ/١٤م) وكانت تشمل زخرفة الطسوت والقدور، والصواني، والمباخر

---

(١) عنان، عبد الله، مصر الإسلامية، وتاريخ الخطط، ط ١، دار الكتب القاهرة ١٩٣١، ص ٣١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٩.

(٣) المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ١٠٥.

(٤) أرنولد، بريجر كريستي، تراث الأسلام في الفنون الفرعية والعمارة والتصوير ترجمة زكي محمد حسن، دمشق، دار الكتاب العربي ١٩٨٤، ص ٣٢.

وتميزت بكبر النسب وقوة الرسوم، وتميزت الزخارف من التحف المعدنية بإضافة عناصر من الطيور كالبطات الطائرة على الشارات والرونوك، وكان كثيراً من التحف ما يحمل اسماء السلاطين الذين أمروا بصنعها أو اسماء الأمراء من رجال البلاط المملوكي.

ولكن هذه الصناعة قد آلت إلى الاضمحلال من القرن (٩ هـ/ ١٥م) حيث تُركت تقنية التكفيت وقامت تقنية التحزيز وظهرت علامات الضعف في الاشكال الفضه والثقلية، الأمر الذي يتعارض مع الزخرفة المعمارية المدهشة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وانتهى الأمر بالاضمحلال التام للزخرفة في المعدن.(١)

ومن الصناعات التي اشتهرت بها أيضاً، صناعة النسيج والكتان والأقمشة المذهبة، (٢) ويوجد في بعض المتاحف العالمية، مثل متحف فكتوريا، قطعة من نسيج الحرير، ملون باللونين البرتقالي والأخضر، فيها أزواج من الطير وكذلك قطعة من النسيج الحريري، تحمل القاب حكام مصر وبلاد الشام من المماليك، وهي عبارة عن قطعة حرير منسوجة بخيوط رقيقة من الجلد المذهب ويزينها زوجان من الببغاوات (٣) وقد ورث المماليك صناعة الأقمشة المزخرفة والمنسوجه من الأيوبين والفاطميين، ومميزات النسيج المملوكي، انها ذات خطوط متكسره ومتعرجة. (٤) ولكنّ الغلاء وجه ضربة قاتلة لصناعة النسيج، حيث ارتفعت أسعار الكتان عماد الصناعة النسيجية، وخربت الأسواق التي كانت تباع فيها لوازم النسيج من مغازل وكتان في سني المحن وما بعدها.(٥)

وكان للازمات الاقتصادية والطواعين التي كانت تضرب البلاد. أثرها، حيث تحولت المصانع إلى أماكن للسكن بالإضافة إلى الحروب والفتن المتالية، التي أدت

---

(١) سعيد عبد الحميد، العمارة والفنون، ص ٤٩١.

(٢) ضومط انطون، الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار الحداثه بيروت، ١٩٨٠، ص ١٥٦. وسيشار اليه لاحقا بـ ضومط الدوله المملوكية.

(٣) ديماند، فنون الإسلام، ص ٢٥٩.

(٤) ضومط، الدولة المملوكية، ص ١٥٩.

(٥) المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٩٨.

إلى خراب المصانع، [1] والغلاء والأحتكار والأزمات الاقتصادية، اديا أيضاً إلى أرتفاع الأسعار في جميع الميادين. وكانت مصانع الأسكندرية، تنتج أنواعاً عظيمة من الأقمشة، وكانت مصر، تضم عدداً من الحاكة والأنوال، الا ان الطواعين والمجاعات فتكت بهم، [2]وفي سنة (٨٣٧ هـ/١٤٣٣م) احصيى الحيّاك الذين كانوا في الأسكندرية فبلغوا ثماني مائة نول، بعدما كانوا في أعوام (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) أربعة عشر ألف نول،[3] وهذا دليل على تدهور الفنون والصناعات النسيجية، والتي كانت تضاهي بل وتنافس صناعات الدنيا بأسرها.

صناعة الزجاج

اشتهرت صناعة الزجاج في العالم الإسلامي، منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي وبلغ الاوج في القرن الثالث الهجري، وتعتبر حلب، ودمشق من أهم مراكز صناعة الزجاج في العصر المملوكي، وغمر أنتاج بلاد الشام القاهرة، وصُدِّر إلى الدول الأوروبية. [4] وأهم مجموعة مملوكية، من الزجاجات هي المشكاوات المذهبة والمطلية بالمينا والتي تحمل أسماء السلاطين.[5]

ولقد تأثر الزجاج المملوكي، بإساليب الزجاج الإيوبية، وفي العصر الثاني، بدأت تظهرخصائص العصر المملوكي، ويوجد تحفتان أحدهما زخرفية، والثانية نحاسية، منقوش عليها رسوم لأشخاص وحيوانات وعليها أبيات من الشعر ملون بالذهبي والأزرق.[6]

---

(١) ضومط، الدولة المملوكية، ص ١٥٨.

(٢) عاصم، محمد رزق، مراكز الصناعة في العالم الإسلامي، ص ١٠٦.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ١، ص ٩٠٩، السخاوي، الذيل التام، ص ٥٨٤

(٤) ديماند، الفنون الإسلامية، ص ٢٤١.

(٥) زغلول، عبد الحميد، سعيد، العمارة والفنون الإسلامية، ص ٤٩٣، أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص٣٠٨.

(٦) ديماند، فنون الإسلام، ص ٢٤١.

ومن المشكاوات المكتشفة حديثاً مشكاة من الزجاج، تزينها زخارف مذهبة من العناصر النباتية،[1] وكان يوجد على هذه المشكاوات، عادة، كتابات عربية، تنقسم إلى كتابات دينية، تشمل آيات قرانية، مثل ﴿الله نور السموات والارض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكبٌ دريٌ﴾.[2]

وكان الهدف من هذه الآيات والمشكاوات أنها صنعت خصيصاً، من أجل أنارة بعض المساجد المملوكية، والنوع الآخر من الكتابات معلومات تاريخية، تتضمن اسماء من صنعها والقابه.[3]

ولكن صناعة الزجاج أخذت في التدهور في نهاية القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي حيث ظهر السرعة في الأنتاج، والضعف في الموضوعات والطلاء، وبالرغم من بقاء الصناعة، الا ان القطع الموجودة في القاهرة، توضح مدى التدهور الذي اصاب الفن في ذلك العصر.[4]

فن الزخارف والنحت : ظهرت نماذج مختلفة من الخشب المزخرف حيث وجدت مراوح نخليه، وزخارف نباتية، وكذلك ابدع الفنانون في ذلك العصر، في ترتيب زخارف هندسية، تتمثل في تجميع وترتيب حشوات صغيرة، ذات رسوم دقيقة، واستُخدم أيضاً أسلوب ترصيع التحف الخشبية بزخارف من العاج والعظم والابنوس، ولكنّ هذه الصناعة بدأت بالتدهور ابتداء من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي.[5]

مما سبق نجد ان أزدهار الفن كان يرافق أزدهار الحياة الاقتصادية والدليل على ذلك، ان المواد المستخدمة فيه، مواد غالية الأثمان، لا يمكن الدولة الضعيفة اقتصادياً، من انتاج مثل هذه الفنون، وقد استمر هذه الأبداع، طوال العصر

---

(١) عبد الرزاق أحمد، مشكاة مملوكية، باسم حسين بن جندربك، المجلة التاريخية المصرية، العدد (٢١-٢٢) ١٩٧٤،ص ١٩٦.

(٢) القرآن الكريم، سورة النور، آية ٣٥.

(٣) أحمد عبد الرزاق، مشكاة مملوكية، ص ١٩٨.

(٤) ديماند، فنون الإسلام، ص ٢٦٤.

(٥) عبد العزيز حمد، أحمد قاسم، الفنون الزخرفية، ص ٤٠.

المملوكي، ويؤيد هذا التحـــف والأبواب والشـــبابيك التي ما تزال قائمة لغاية الان، [1] وأُستخدمت ايضاً المقرنصات في الزخارف وكسوة المحاريب ببلاط الرخام المزخرف والفسيفساء في الداخل، ولكن كان للازمات الاقتصادية دور في تدهور هذا الفن، وبالرغم من وجود بعض الفنون والصناعات الا انها لا يمكن ان تنافس ما صنع في العصور السابقة.[2]

أما فن النحت على الحجارة والرخام، فقد كثرت المنابر الرخامية والشبابيك المصنوعة من الحجر المفرّغ.[3] وكذلك وفرة العمائر من المساجد والأضرحة وتميزها، بالضخامة، والملحقات الكثيرة، كالأُطر والطاقات الضخمة، والعقود الشاهقة، التي تصل إلى أرتفاع عالي، مثل مدخل جامع السلطان حسن الذي يبلغ ارتفاعه ٦٦ قدماً.[4]

اهتم المماليك بواجهات المباني، وأكثروا من استخدام الحجارة المصقولة في العمائر وكانت ذات الوان متعددة، مثل الأبيض والأصفر والأحمر والأسود ، وذلك من أجل الحصول على تأثير فني، كما في واجهات مسجد قايتباي.[5]

وبالرغم من ان الزخارف النباتية والكتابية هي السائدة في عمائر المماليك، الا انه وجد اثر لكائنات حية على قطعة رخامية نقشت، بشكل بارز، بهيئة اسد، ولوح أخر محفور عليه رسوم نباتية ذات اغصان، تحمل فوقها طواويس وطيور.[6]

وفي النهاية نخلص إلى نتيجة واضحة وهي ان العمارة والفنون شهدت في العصور الأولى للدولة المملوكية، ازدهاراً كبيراً، ولكنها في أواخر القرنين التاسع وبداية العاشر الهجري، الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، تعرضت لهزات عنيفة، واضمحلال كبير ويدلل ديماند على ذلك بقول المقريزي «وقد قلّ استعمال

---

(١) المرجع نفسه، ص ٨٦.

(٢) ديماند، الفنون الإسلامية، ص ١٢٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٢.

(٤) حميد، عبد العزيز ، الفنون الزخرفية، ص، ٨٥-٨٦.

(٥) حميد، عبد العزيز ، ٨٥-٨٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٨٨.

الناس في زماننا هذا للنحاس المكفت، وعز وجوده، فإن قوماً لهم، عدة سنين، تصدو لشراء ما يباع منه، وبقيت في هذا السوق، بقية من صناعة الكفت قليلة.[1] وكان للإمراض دور في شل حركة الأقتصاد، حيث قضت على الصناع والحرفيين، والماشية التي تُعد عماد الأقتصاد، وتضاعفت أجور العمال، فلم يعد بالإمكان الوصول إلى العامل الا بعد جهد، ونقص العمال والسكان.[2]

وكان للغزو الصليبي لمصر وبلاد الشام، وغزوتيمورلنك، أثر حيث أخذ العديد من الصنّاع والحرفيين المهرة، والذي أدى بالتالي إلى تدهور الفنون في العصر المملوكي، إلى جانت الأزمات الأقتصادية التي شهدتها المنطقة.[3]

وبقيت الصناعات، بديعة الطراز إلى ان غزا تيمورلنك الإعرج بلاد الشام ودخل دمشق سنة (٨٠٣ هـ/ ١٤٠٢م) فسبى كثيراً من صناعها الماهرين ويقال انه أسر مائة وخمسين الفاً من دمشق بينهم الأطباء والصناع، والبناؤون والحاكة، والتجار، وارباب الصناعات المختلفة، وأخذهم معه إلى سمرقند.[4]

---

(١) المرجع نفسه، ص ٨٨، أنظر أيضاً، مجلة وحدة الفن الإسلامي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، عدد ١٤، ١٩٨٧ ديماند، الفنون الإسلامية.

(٢) المقريزي، اغاثة الأمة، ص ١١٣.

(٣) أشتور، التاريخ الأقتصادي، ص ٢٤.

(٤) الحصني، محمد اديب، منتخبات التواريخ، لدمشق، المطبعة الحديثة ١٩٢٤م، (جـ١-٢)، ص ١٣٢.

الفصل الثالث

الآثار الاقتصادية للمجاعات

أ- أثر المجاعات على أسعار المواد الغذائية.

ب- أثر المجاعات على المواشي.

جـ- أثر المجاعات على الإيرادات والمصروفات

د- أثر المجاعات على السكة المملوكية

هـ- محاولات التصدي للمجاعات

أ- أثر المجاعات على أسعار المواد الغذائية

كان ارتفاع أسعار المواد الغذائية والأستهلاكية في أوقات المجاعات، هو الأكثر تاثراً بهذه الأحداث ويمكن أن نعزوا ارتفاع الأسعار إلى قلة وجود المواد الغذائية في الأسواق، بسبب المجاعة مع وجود طلب كبير عليها من قبل عامة الناس.

وقد تأثرت جميع السلع تقريباً بسبب المجاعات، وكان القمح والدقيق هما السلعة الغذائية التي ترتفع أسعارها بشكل كبير، حين يقل وجوده في المخازن والطواحين إما لقلة المعروض من القمح أو بسبب حكر من يملكه عليه، طمعاً في ارتفاع الأسعار.

ومن خلال تتبع الأسعار، نجد عدم إستقرارها، ففي حوادث سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) أصاب المنطقة غلاء شديد، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار، وخاصة في دمشق وحلب ومصر، وكان أن بيع المكوك القمح بمئة درهم، والشعير بستين، والبطيخ بثلاثين درهما.[1]

وشمل إرتفاع الأسعار سائر المواد، فبلغ ثمن الرطل من التمر هندي ستين درهماً، وكان سبب حدوث الغلاء، هو الوباء الذي أصاب الشام.[2] وفي سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٥٦م) غلت في الشام المأكولات والملبوسات، وارتفع سعر الخبز، حيث بلغ رطل الخبز درهمين ورطل اللحم خمسة عشر درهماً، والثوم درهماً ونصفاً، والعنب كل رطل بدرهمين، وكان سبب هذا الغلاء، هو ضرب الفرنج لدراهم جديده، عُرفت - باليافية- وهي مغشوشة، مما أدى إلى زيادة السعر في كل شيء.[3]

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١ قسم ٢، ص ٤٠٩.

(٢) المصدر نفسه، جـ١ قسم ٢، ص ٤١٠.

(٣) أبو شامه- الذيل على الروضتين جـ١، ص ٢١١، اليونيني، ذيل المرآة الزمان، جـ١، ص ٣٧٦.

وارتفعت الأسعار بشكل كبير سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م) حيث بلغ الرطل اللحم، ستة دراهم والغرارة القمح بـ اربعمائة وخمسين درهماً والشعير بثمانمائة وخمسين درهماً، ورطل الخبز بثلاثة دراهم، مع اشتداد الغلاء في جميع الأقطار، وموت الناس جوعاً.[١] وكان ارتفاع الأسعار هائلاً، ففي سنة (٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م) بلغ الأردب من القمح مئة وخمسين درهماً نقرة،[*] والشعير سبعين درهماً، واللحم مئة وأربعة وأربعين درهماً الرطل.[٢]

وشمل الغلاء أيضاً إلى جانب القمح والخبز واللحوم، الشعير حيث ارتفع سعره، فهو علف الحيوانات ومنه يصنع خبز الشعير كمادة بديلة لخبز القمح- وبارتفاع سعره أيضاً يتعذر عليهم شراؤه والحصول عليه. وبارتفاع سعر اللحم، يفقد عامة الناس، عنصراً مهماً في بناء الأجسام، وخاصة الاطفال وكبار السن وهو فقدان عنصر البروتيين المهم لمقاومة الأمراض لدى الإنسان.

وتتفاقم الأمور تعقيداً، ففي سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) (٦٩٥هـ/١٢٩٥م) حدثت المجاعة، وارتفعت خلالها الأسعار، وخاصة القمح حيث وصل الأردب منه إلى ثلاثمائة درهم،[٣] وفي السنة التي تليها، وصل الأردب إلى مئة وثمانين درهماً، والشعير تجاوز المئة درهم للأردب، والفول تسعين درهماً، والفروج عشرين درهماً،[٤] وكذلك ارتفع سعر السكر، وخاصة أن السكر كان مهماً كعلاج للأمراض التي وقعت في البلاد، وشمل الغلاء أيضاً الأدوية وانعدمت الفاكهه.[٥]

وفي مجاعة سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) ارتفعت الأسعار، وشمل هذا الأرتفاع الماء، ويمكن أن نعزو سبب الأرتفاع في أسعار المياه إلى عدة عوامل، منها إنخفاض

---

(١) اليونيني، ذيل مرآة الزمان جـ١، ص ٤٩٨، الكتبي، عيون التواريخ، جـ ٢٠، ص ٢٦٧.

(*) الدرهم النقرة، هي الدراهم التي كانت تغلب فيها نسبة الفضة على النحاس. محمد البقلي، التعريف بمصطلحات صُبح الأعشى، ص ١٣٤.

(٢) اليونيني، ذيل المرآة جـ٢، ص ٢٣٢.

(٣) ابن كثير البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ٣٤٢، العيني، عقد الجمان، جـ ٣، ص ٢٧٦.

(٤) المقريزي السلوك، جـ ١ قسم ٣، ص ٨١٣، اليافعي، مرآة الجنان، جـ ٤، ص ٢٢٧.

(٥) النويري، نهاية الأرب، جـ ٣١، ص ٢٩٣، ابن أيبك، كنز الدرر، جـ ٨، ص ٣٦٤، العيني عقد الجمان، جـ ٣، ص ٣٠٠، للمزيد انظر، القرماني، أخبار الدول، ص ٢٠٠.

مستوى منسوب مياه النيل، حيث يؤدي ذلك إلى زيادة الجهود المبذولة لرفع المياه، بالاضافة إلى قلة حيوانات النقل من بغال وجمال، والتي نفقت بسبب الموت أو الذبح، كما نستطيع القول ان الأرتفاع العام في أسعار المأكولات كان يؤدي إلى ارتفاع الأجور، حيث لم يتمكن الأجراء من شراء[1] غذائهم حيث وصل سعر الراوية الماء إلى اثني عشر درهماً.[2]

كما يمكن القول ان إرتفاع الأسعار يعود أيضاً إلى إمساك الأمراء عن بيع القمح طلباً للربح في أثناء المجاعات.[3]

ولم يقتصر الأمر على السلع الغذائية الخاصة بالناس. بل تعداد إلى غذاء الحيوان، ففي سنة (٧٥٥هـ / ١٣٥٤م) تلف التبن ولم يوجد وبلغ كل حمل منه عشرين درهماً، أما البرسيم، والذي كانت ترعاة الدواب عوضاً عن التبن، فغلت أسعاره، وبلغ الفدان منه مئتي وخمسين درهماً[4] وهذا الأمر سوف يؤدي إلى موت الحيوانات، أوهزالها على الأقل، ولم يعد بمقدورها القيام بأعمالها المعتادة من حرث ونقل وغير ذلك.

ومن أسباب ارتفاع الأسعار أيضاً، كثرة الأمراض، وعدم قدرة الناس على العمل، ففي سنة (٧٦٢هـ / ١٣٦١م) غلت الأسعار بسبب الأمراض، وغلاء السكر والماء والفاكهه[5] وفي سنة (٧٧٥هـ / ١٣٧٣م) ارتفع سعر القمح إلى مائة وعشرين درهماً الأردب القمح والشعير ثمانين درهماً، ورغيف الخبز أربعة دراهم، وكان سبب ذلك هو القحط[6] وتزايدت أسعار الأرز والرمان واللحم، وذلك في سنة

---

(١) الصاوي، أحمد السيد، مجاعات مصر الفاطمية، أسباب ونتائج، دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، بيروت-لبنان ١٩٨٨، ص ١٧٥. وسيشار إليه فيما بعد بالصاوي مجاعات مصر.

(٢) القلقشندي، مآثر الإنافة، جـ ٢، ص ١٥٥، السخاوي، الذيل التام، ص ٩٨، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، ص ٥٣٠.

(٣) السخاوي، الذيل التام، ٩٨.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ ٢، قسم ٢، ص ٤٢٤،

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ١٤، ص ٢٧٦.

(٦) إبن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، قسم ٢، ص ١٢٥.

(٧٧٦هـ/١٣٧٤م) [١] ولكن الأمر تغير في أواخر شهر ذي القعده، حيث رخصت الأسعار بعد وصول القمح الجديد، وعادت الأسعار إلى ما كانت عليه فكان كما قيل:

(مجزوء الرمل)

قـل لـمن يحمل هماً   إن هـذا لا يـدوم[٢]

مثلما تـفني المسرات   هكذا تفني الهموم

وشمل إرتفاع الأسعار أيضاً البيض، حيث بيعت البيضة الواحدة بثلاثة دراهـم والقمح بخمسمائة درهم، وكان هذا في الشام[٣] وفي سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) ارتفع سعر القمح مئة وخمسين درهماً، أما الشعير فبلغ خمسين درهـما [٤] وعندما كان يقع الطاعون ترتفع الأسعار وخاصة الفاكهه مثل البطيخ، والتي بلغت قيمتها دينارين،[٥] وكان زيادة النيل يؤدي إلى ارتفاع الأسعار، حيث يصل الأردب من القمح إلى أربعين درهماً والفول والشعير إلى عشرين درهما.[٦]

وفي سنة (٧٩٧هـ / ١٣٩٤م) تزايدت الأسعار إلى جانب الطاعون وكان سبب هذا الأرتفاع زيادة مياه النيل عن حده المعهود الستة عشر ذراعاً، ووصل الأردب من القمح إلى ثمانين درهماً، والفول والشعير إلى خمسين، والتبن عشرة، واللحم إذا كان مطبوخاً الرطل بدرهمين، والنيىء كل رطل بدرهم.[٧] وزادت أسعار الخبز والقمح حيث بيع كل أردب بمئة درهم ومئة وخمسين أما اذا غُربل، فيصبح ثمنه

---

(١) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ ١، ص ٩٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ ١١، ص ٥٤، إبن إياس، بدائع الزهور جـ ١، قسم ٢، ص ١٢٧، ١٢٨، القرماني، أخبار الدول، ص ٢٠٥.

(٢) إبن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، قسم ٢، ٧٨٤.

(٣) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ ١، ص ١٥٩، ابن إياس، بدائع الزهور جـ ١، قسم ٢، ص ١٦٠.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، قسم ٢، ص ٧٨٤.

(٥) ابن الفرات، مج٩، جـ ١، ص ٢٧، ابن حجر، أنباء الغمر، جـ ٢، ص ٢٩٠/٢٩١، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ١، ص ١١٧.

(٦) ابن قاضي شهبه، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٢١، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ١، ص ٣٩١.

(٧) ابن الفرات، تاريخ، مج ٩، جـ ٢، ص ٣٩٩، ابن قاضي شهبه، جـ ٣ ص ٥٤٠، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ١، ص ٤١٤.

كل قدح بدرهمين.[1] وعانت القدس من ارتفاع الأسعار، مع القحط الشديد، وعندما انخفضت الأسعار، إمتنع التجار عن البيع، مما أدى إلى ارتفاع السعر مثلما، كما حدث فيها عندما امتنع تجار القمح عن البيع الأمر الذي أدى إلى ارتفاع الأسعار مرة أخرى، حيث وصلت إلى مئة وعشرين درهما الأردب من القمح أما الشعير فوصل إلى ستين.[2]

وفي القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي إرتفعت الأسعار ففي سنة (٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م) بلغ سعر القمح خمساً وسبعين درهماً الأردب، والخبز ثلاثة أرطال بدرهم، بالإضافة إلى الأرتفاع في أسعار المأكولات والمشروبات والملبوسات.[3]

وفي سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٣م) ارتفعت الأسعار بشكل كبير، حيث وصل الأردب من القمح سبعين وزاد سعر الشعير على القمح وارتفع الفول وبيع حمل التبن بخمسين درهماً، بعد أن كان بخمسة وارتفع أسعار السكر والزيت والفستق والصابون إلى خمسمائة درهم[4] وراتفعت أسعار القماش بأنواعه المختلفة[5] وغلا الكتان وبلغ الرطل منه ثلاثين درهماً.[6]

وارتفعت الأسعار في سنة (٨٠٧هـ/١٤٠٤م) إلى الحد الذي بيع فيه زوج أوز بألف ومائتي درهم.[7] وارتفع سعر الشعير وكثُر أكل الناس للفول، مما أدى إلى غلاء سعره، حيث وصل الأردب منه إلى ٤٠٠ درهم والبصل بدرهمين والثوم بخمسة دراهم.[8]

---

(١) ابن الفرات، تاريخ، مج ٩، جـ ٢، ص ٤٣٤؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٧٧، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٢، ص ١٦١.

(٢) ابن قاضي شهبه، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٧٨، ٥٨١.

(٣) المقريزي، السلوك، جـ ٣، قسم ٢، ص ١١٣، ابن إياس، بدائع الزهور جـ ١، قسم ٢، ص ٥٤٤.

(٤) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٢، ص ١٦١

(٥) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ١٩٢.

(٦) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ ٧، ص ٢٥.

(٧) المصدر نفسه، جـ ٥، ص ١٩٤، ١٩٥

(٨) المقريزي، السلوك، جـ ٣، قسم ٣، ص ١١٣٥.

ولم يقتصر الأمر على المواد الغذائية، بل تعداه إلى البذور فارتفعت أسعار بذور الجزر إلى خمسمائة درهم وبزر اللفت إلى ثمانين درهماً.[1]

وارتفعت أسعار الفواكهه بسبب الطلب المتزايد عليها، من قبل المرضي ففي سنة (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) إنتشرت الأمراض، وبلغ سعر السفرجل مئة وثلاثين درهماً، بسبب كثرة طبخه للمرضى.[2]

وكان للقحط أيضاً أثره في ارتفاع الأسعار حيث جفت الزروع وامتنع الناس عن بيع ما لديهم رغبة في إزدياد السعر، فارتفعت الأسعار الأردب القمح بـ أربعمائة وعشرين درهماً، والفول والشعير قريباً من المائتين وكان ذلك في سنة (٨٢٠هـ / ١٤١٧م) وحصل الأمر عينه في سنة (٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م) حيث امتنعوا عن البيع رغبة في زيادة السعر، وقام أصحاب الأموال بالاكثار من شرائها طلباً للأثمان الغالية عند بيعها، فارتفع سعر القمح إلى مئتي درهم، والفول والشعير إلى مئة وخمسون درهم.[3]

وتتابع الأسعار صعوداً وهبوطاً، فارتفع سعر الأردب من القمح أكثر من ثلاثمائة درهم، بل قد يصل إلى ثلاثمائة وخمسون درهماً، والشعير بـ مئتين وخمسين درهماً، والحمل التبن بثمانين، وكان ذلك في سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) والسبب في هذا الأرتفاع هو أكل الدود للزرع،[4] وزيادة عدد قطاع الطرق في النيل واستيلائهم على المراكب المحملة بالغلال، وفي الوقت نفسه نقل كميات كبيرة من الغلال إلى بلاد الحجاز لمواجهة الغلاء الشديد الموجود بها.[5]

وكثُر أكل الناس لخبز الذرة عند ارتفاع سعر القمح، وأكثروا من زراعتها، بسبب بوار الأراضي الزراعيه، وخراب القرى، وقلة المواشي عندهم.[6]

---

(١) المصدر نفسه، جـ ٤، قسم ١، ص ٣٠-٤٠.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٤، قسم ١، ص ٦٠.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٤، قسم ١، ص ٤٣١. الصيرفي، نزهة النفوس جـ ٢، ص ٢٩٩.

(٤) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٢، ص ٤٥٢.

(٥) نبراوي، أسعار السلع الغذائية، ص ١٨٤.

(٦) المقريزي، السلوك جـ ٤، قسم ١، ص ٥٢١.

وفي سنة (٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م) ثارت العامة على المحتسب بسبب إرتفاع أسعار القمح واللحوم،[١] وارتفع سعر الفول والغلال، ووصل الأردب إلى مئة وخمسين درهماً.[٢]

وفي سنة (٨٣١هـ/١٤٢٧م) تزايدت الأسعار، في كل ما يؤكل وخاصة القمح، حيث بيع بستمائة درهما كل أردب، والفول بـ خمسمائة درهم والشعير بـ أربعمائة درهم، وتزايد سعر كل شيء أضعاف ما كان عليه.[٣]

وهكذا نستطيع القول أن المواد الغذائية الأساسية قد تعرضت لارتفاع كبير في الأسعار نتيجة لحدوث المجاعات وحكر من يملكبا عليها، وكذلك السياسات الأقتصادية الخاطئة التي اتبعها المماليك في اثناء حكمهم للبلاد.

ب- أثر المجاعات على المواشي

إن الإنتاج الزراعي بشقية النباتي والحيواني، يعتبر الدعامة الأساسية للاقتصاد، وكما يتأثر أنتاج الأراضي الزراعية بظروف الإنسان المختلفة من مجاعة ووباء، يتأثر الأنتاج الحيواني كذلك، فلقد شهدت الثروة الحيوانية في أوقات الأزمات الإقتصادية تدهوراً واضحاً تمثل في القضاء على هذه الثروة وقد أفاض المؤرخون في الحديث عن أثر المجاعات على الحيوان وخاصة إذا ما علمنا أن البروتين الحيواني أحد المصادر المهمة في غذاء الإنسان، هذا وقد أدت المجاعات المتوالية التي أصابت المنطقة إلى إرتفاع أسعار الحيوانات واللحوم، ويمكن إرجاع السبب في ارتفاع الأسعار إلى قلة الأعشاب الناجمة عن عدم وفاء فيضان النيل وزيادته المفرطه، إلى جانب انتشار الأوبئة بين الحيوانات ونفوق أعداد كثيرة منها.[٤] ففي طاعون (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) الذي عم مناطق واسعة من العالم أنذاك، ماتت فيه أعـــداد كبيرة من الحيوانات من طيور ووحوش، وخيول، وجمال، وحمير.[٥]

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٠١.

(٢) المقريزي، السلوك،جـ٤، قسم٢، ص ٦٨٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٨٢، إبن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٢٠/١٢١.

(٤) الصاوي، أحمد، مجاعات مصر، ص ١٧٢.

(٥) السخاوي، الذيل التام، ص ٩٧، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ٥٢٠/٥٣١، القرماني، أخبار الدول، ص ٢٠٣.

وكان المزارعون يخسرون الكثير من الأموال نتيجة لفقدانهم لمواشيهم، ففي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) كثر موت الأبقار في مصر وكان لأحد المزارعين ثلاثمائة وأربعون راساً ماتت جميعها[١] وأدى موت الأبقار إلى فقدانها وزيادة أسعارها، وفي حوادث سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) وقع موت آخر للأبقار، مما أدى إلى تعطل الطواحين والدواليب والسواقي وذلك لانها كانت تعمل بفعل الأبقار، وخسر الناس كثيراً، وكانوا يقومون بتعويض الأبقار بالجمال والحمير، فإرتفعت أسعارها، حيث بلغ سعر الثور ألف درهم.[٢]

وأدى موت الأبقار إلى تعطل حراثة وزراعة مساحات واسعة[٣] من الأراضي الزراعية، وتعطلت معاصر الاقصاب، مما أدى إلى غلاء اسعار القنود «والقند هو عسل قصب السكر إذا جُمِدَ» حيث وصل سعر العشرة قناطر إلى مائة درهم.[٤]

وكان من نتائج موت الأبقار الإضرار بأحوال المزارعين فلم تعد الناس تستطيع شراء لحوم الأبقار لقلتها من ناحية، وارتفاع أسعارها من ناحية أخرى، كما أثر موت الأبقار بشكل كبير على البيئة «وجافت الحارات التي بالقرب من الزرائب لكثرة موت الأبقار ورميها على الأبواب.[٥]

مما أدى إلى إنتشار الإمراض نتيجة لكثرة وجود الجيف في الطرقات كما أدى إصابة الأبقار بألامرض المختلفة إلى انخفاض اسعارها فيسارع أصحابها إلى بيعها خوفاً من موتها، فانحط سعرها «وبلغ الأمر ان أُبيع كل بقرة كانت تساوي قديماً خمسمائة درهم بعشرين درهماً ولم يوجد من يشتريها، وامتنع الطباخون عن طبخ لحوم البقر وبيعها، ولم يعد الناس يشترونها ولا يأكلونها لما بها من أمراض.[٦] فخسرت الناس أموالها.

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ١، قسم ٣، ص ٧٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩١٢.

(٣) النويري، نهاية الأرب، جـ٣١، ص ٤١٦، العيني، عقد الجمان، جـ٤، ص ١٣٧.

(٤) المنصوري، مختار الأخبار، ص ١١٥، العيني عقد الجمان، جـ٤، ص ١٣٧.

(٥) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٢٥٢، ٢٥٣.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة جـ١١، ١٠٦، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٢٤٤ ابن طولون مفاكهة الخلان، جـ١، ٢٦٧.

وفي مجاعة سنة (٦٩٥/٦٩٦هـ/١٢٩٥م/١٢٩٦م) إرتفعت أسعار الدجاج ووصلت إلى خمسة عشر درهماً سعر الدجاجة الواحده، وبيعت البيضة بأربعة دراهم، ولم يبق عند أحد من الناس شيئاً من الحيوانات وألجات المجاعة الناس إلى أكل لحوم الكلاب والقطط، بل وبيعها حيث وصل سعر الكلب إلى خمسة دراهم، والقط بيع بثلاثة دراهم.(١)

وفي مجاعة سنة (٧٧٦هـ/١٣٧٤م) ارتفع سعر الدجاج إلى خمسة وأربعين درهماً للدجاجة،(٢) وماتت الخيول فخلت اسطبلات الأمراء والجند منها، وحصل لهم ضرر كبير وذلك لحاجتهم لركوبها وماتت الحمير والبغال ولم يبق شيءٌ من هذه الحيوانات(٣) ونتيجة للغلاء الشديد في السنة ذاتها، ماتت أكثر الحيوانات من قلة العلف مما أدى إلى غلاء البضائع،(٤) وذلك لقلة وجود الحيوانات التي تقوم بنقلها بين المدن المختلفة.

أما الشام فلم يكن الحال فيه بأفضل من مصر ففي سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) أصاب الحيوانات الموت، ونفق منها ما يقارب الثمانين ألف رأس(٥) كما ماتت الكثير من الأغنام وقلت الضحايا لندرتها، وفي سنة (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) أصاب الطاعون الحيوانات من وحوش واسماك وتماسيح.(٦) وقضى على معظم الثروة الحيوانية فيها، والنتيجة التي نخلص إليها أن الإقتصاد تعرض إلى نكسه قوية بسبب المجاعات، فماتت الحيوانات بسبب قلة الأعلاف، مما أدى إلى نقصانها وتعطل مصالح الناس، وخاصة إذا ما علمنا أن الحيوانات من بغال وخيول وحمير، كانت مقصودة للصناعات المختلفة وهي وسيلة النقل في المجتمع سواء في نقل الأفراد أو البضائع وتسبب موتها في تعريض الناس إلى خسائر مادية كبيرة نتيجة

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ٣٩٠/٣٩١.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم ١، ص٢٣٦، ابن إياس، بدائع الزهور جـ١، قسم ٢، ص ١٣٨.

(٣) ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ١، ص ٢٥٧، إبن سباط، تاريخ جـ٢، ص ٨٤، السيوطي، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٢٩٨.

(٤) القلقشندي، مآثر الإنافة، جـ٢، ص ١٧٣، المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم ١، ص ٢٣٥.

(٥) العيني، عقد الجمان، جـ٤، ص ٣٠٨.

(٦) إبن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٢٨/١٢٩.

لفقدانهم لعنصر مهم من عناصر ثروتهم وكذلك عدم توفر الطعام للناس وذلك بسبب ارتفاع اسعار اللحوم نتيجة للأمراض التي تصيبها خوفاً من إنتقالها إليهم.

جـ- أثر المجاعات على الايرادات والمصروفات

تشكل المصروفات العبء الأكبر على خزينة الدولة، ممثلة، بالرواتب والجرايات، وتفريق الأموال على العلماء والفقهاء والمماليك ونفقات الحملات العسكرية، التي ترسلها الدولة للقضاء على الفتن المختلفة التي كانت في البلاد.

ونتيجة للمجاعات المتكررة التي ضربت المنطقة، تأثرت إيرادات الدولة، وخاصة ان الاقتصاد المملوكي، قام أساساً على الزراعة والتي تعتبر أهم واردات الدولة على الأطلاق، بالإضافة إلى الصناعة والضرائب وغيرها، والتي كانت تفرض على التجارة الداخلية والخارجية.

ولقد قلت إيرادات الدولة المملوكية الزراعية وذلك بسبب فيضان النيل والذي يؤدي إلى إغراق المحاصيل وتلفها، أو نتيجة لتناقص مياه الفيضان الأمر الذي أدى إلى موت سكان القرى وبوار الأراضي الزراعية[1] وكثيراً ما غرقت الأراضي بسبب عدم العناية بالجسور، حيث أدى ذلك إلى الاعفاء من الخراج، بسبب الخسائر التي يتعرض لها الفلاحين.[2]

وكان فيضان النيل يؤدي إلى خسارة الدولة الكثير من الأموال نتيجة للمسامحات التي تُقدم للفلاحين، وحتى تتغلب الدولة على مصاعبها المالية، كانت تلجاء إلى المصادرات للتخفيف من قلة مصادرها المالية. ولقد ظهر الخلل في الدول لقلة المال، وكثرة النفقات، فتعددت المصادرات، للولاة والمباشرين، وطُرحت بأعلى الأثمان على التجار.[3] وشكلت نفقات المماليك ورواتبهم أعباءً كبيرة على الخزينة المملوكية حيث بلغت نفقة المماليك شهرياً ألف ألف ومائتي ألف درهم للمماليك

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ١، ص ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٢، قسم ٢، ص ٤٥٤، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٣، ص ٢٤١.

(٣) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٦٩-٧٠.

السلطانية[1] سوى ما يوزع عليهم من اللحم والكسوة والرواتب حيث بلغ راتب كل مملوك منهم، ما يقارب الاربعمائة إلى خمسائة درهم مما أدى إلى اختلال الأحوال[2] ونتيجة لضيق حال الدولة، قُطع كثير من أرزاق الناس من مرتبات، ولحوم وغيرها وكان ذلك في سنة (٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م).[3]

وكثيراً ما فرض المماليك على القرى والنواحي، مالاً يسمونه الضيافة وذلك للتعويض عن عجز ديوان المفرد [*] عن نفقة المماليك فتقوم بعملية جباية الأموال من الفلاحين حيث أدى ذلك إلى اختلال أحوال الفلاحين،[4] ومن مصادر، دخلهم أيضاً الأموال التي يفرضونها على البلاد والقرى، مما يؤدي إلى إنحطاط مقدار خراج المقطيعن فيما بعد.[5]

وفي سنة (٧٣٨هـ/١٣٣٧م) وبسبب خراب الزرع، وتلفه، أمر السلطان بوضع الخراج عن الفلاحين[6] وقد أثر ذلك على موارد الخزينة، كما كانت الخزائن خالية من الأموال في سنة (٩١٧هـ/١٥١١م) وكان السلطان عاجزاً عن تحصيل الأموال فجمع مماليكه، وأمر بأن يكون نفقة كل مملوك، أربعين ديناراً ومن أجل تحصيل الأموال قام ببيع الأملاك والأرزاق التي اوقفها على المدارس.[7]

---

(١) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ١، ص ٢٨.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ١، ص ٢٨.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٤، قسم ٢، ص ٩١٤.

(*) ديوان المفرد : يرجع تأسيس هذا الديوان إلى أيام الفاطمين، وأفرد له السلطان برقوق بلاداً، وأقام له مباشرين، وجعل الحديث فيه لأستادارة الكبير، ورتب عليه نفقة مماليكه من جامكيات وكسوه وعليق، وغير ذلك،محمد البقلي. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص ١٤٩.

(٤) المقريزي، السلوك،جـ ٤، قسم ٢، ص ٧٩٨.

(٥) ابن أجا، محمد بن محمود الحلبي (ت ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م) العراك بين المماليك والعثمانين الاتراك، مع (رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار) ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦، ص ٢٠٨/٢٠٩. وسيشار إليه لاحقاً، بـ ابن أجا العرك بين المماليك والأتراك.

(٦) المقريزي، السلوك، جـ ٢، قسم ٢، ص ٤٤٥.

(٧) إبن إياس، بدائع الزهور، جـ ٣، قسم ٢، ص ٤٥٤.

وأخذت موارد الدولة بالتناقص باستمرار، وزعزعت المصاعب المالية، سلطات القاهرة العسكرية وأخذت البلاد تعاني من أعراض فقر عام، تمثل في تقلص ستوردات البلاد من المعادن الثمينة، وعجز دور السكة في بلاد الشام ومصر عن سك الدراهم الفضة.[1]

وأخيراً نخلص إلى أن الدولة، عانت نتيجة للمجاعات من قلة مصادر دخلها وبالتالي نفقاتها، وذلك إما بسبب عجز الفلاح عن أداء الخراج نتيجة لتزايد أو نقصان النيل، أو نتيجة هجرة الأراضي وعدم زراعتها، مما يؤدي إلى عدم تحصيل الخراج، أو بسبب موت الفلاحين وقلة الأيدي العاملة.

د- أثر المجاعات على السكة المملوكية

كانت السكة المستخدمة في الدولة المملوكية هي السكة الأسلامية والمتمثلة بالذهب والفضة اللذان يكونان ثمن المبيعات وقيمتها، ولم يتخذ أحد من البشر غيرها.[2] ويتحدث المقريزي عن نقد مصر، بقوله أنه الذهب[3] أما العُمري فيقول «وكانت معاملة مصر هي الدراهم، حيث يكون ثلثها من الفضة، والثلث الأخر نحاس».[4]

وقد تعرضت السكة المملوكية إلى الكثير من التغيرات فيها، وأكثر سلاطين المماليك من ضرب النقود، فعندما كان يتولى العرش سلطان جديد يعمد إلى الغاء سكة من سبقة من السلاطين وأول فساد حصل في السكة في مصر، كان سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م) في إمارة الملك الظاهر برقوق قبل السلطنة، وعندما ولي السلطنة أكثر من ضرب الفلوس وأبطل ضرب الدراهم.

---

(١) أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ٤١٠.

(٢) المقريزي، إغاثة الامة، ص ٨٥. شذور العقود في ذكر النقود. تحقيق محمد السيد علي. المكتبة الحيدريه، النجف، ط ٥، ١٩٦١، ص ٣٧، وسيشار اليه لاحقاً بشذور العقود للمقريزي.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٤) العمري، شهاب الدين، أبو العباس أحمد (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار (دولة المماليك الأولى) دراسة وتحقيق، دوريتا كرافولسكي، الناشر، المركز الإسلامي للبحوث بيروت، ١٩٨٦، ص ٨٠/٨١.

وكان هذا الأجراء بلاء على كل أهل مصر، حيث بلغ الدينار الذي كان وزنه خمسة وعشرين درهماً مئتان وخمسون درهماً، مما أدى إلى إنحطاط مراتب الناس، وأصبحوا يعانون من القلة والذل والفقر «وقد هلك في مصر بفعل هذا، أممٌ لا تحصى، ولم يكن له من هم، سوى تكثير ماله».[1]

وكان قيام الفرنج بأخذ النحاس الأحمر، بالإضافة إلى قيام أهل البلد بسكبها طلباً للفائدة، فنفذت الدراهم، وراجت الفلوس، وأصبح كل دينار بكذا من الفلوس.[2] وصارت الفلوس هي المتداولة بأيدي الناس، مما أدى إلى قلة الدراهم بسبب عدم ضربها نهائياً، وقيام الناس بسكبها وتحويلها إلى حُلي، مما أدى إلى قلة الأقوات بسبب إختلاف النقود.[3]

وكثيرا ما كان اولي الأمر، يهدفون إلى تحقيق الأرباح عن طريق النقود، ففي سنة (٧٩٤هـ/ ١٣٩١م) ضربت بدار ضرب الاسكندرية، فلوس ناقصة الوزن، وذلك طمعاً في الربح، وكانت من أهم الأسباب التي أدت إلى إرتفاع الأسعار، ونقص أموال الناس.[4]

وكان من أسباب الفساد أيضاً. هو الغش، حيث كان الغش، والتزيف كثيراً، ففي سنة (٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م) كثرت الفلوس الخفيفة الوزن، مما أدى إلى حدوث تضخم مالي، فإرتفعت الأسعار، بمقدار الضعف، فإرتفع سعر القمح من عشرين إلى أربعين درهماً الأردب[5] وفي سنة (٧٢١هـ/١٣٢١م) توقفت أحوال الناس، بسبب كثرة النقود المغشوشة، كما أدى إلى إرتفاع أسعار البضائع، وأصبحت الفلوس بالوزن وليس بالعدد، وهذا تطور جديد في أمر النقود.[6]

---

(١) المقريزي، درر العقود الفريده في تراجم الأعيان المفيدة، دراسة وتحقيق، محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٢، القسم الأول، ص ١١٢.

(٢) المقريزي، شذور العقود، ص ٤١.

(٣) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ١٠٩/١١٠.

(٤) ابن حجر، انباء الغمر، جـ٨، ص ٤٢،٤١، للمزيد أنظر، ابن سباط تاريخ، جـ٢، ص ٦٥٠.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم ١، ص ١٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

وكان التـزيـف مستشرياً فقد ألقي القبض على رجل صوفي، وجد عنده آله لسك النقود، فسجن وضرب وكان ذلك في سنة (٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م)[١] ولم يقتصر الأمر على العامة بل تعداه إلى المماليك ففي سنة (٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) أمر السلطان بنفي. رأس نوبة السقاة مثقال الطواشي إلى مكة بسبب ضربه لدراهم مغشوشة، حيث وُجد في بيته آله لضرب النقود يضعون بها الدراهم الزغل «فرام السلطان قطع ايديهما ولكنه لم يفعل».[٢]

وكانت تحصل الأضرار الكبيرة نتيجة لوجود الفضة والفلوس[٣] المغشوشة، وارتفعت أسعار الفلوس في سنة (٨١٤هـ/١٤١١م) حيث نودي على كل رطل منها بأثني عشر درهماً، بعد أن كان يباع الرطل منه ستة دراهم، مما أدى إلى إغلاق الأسواق وقلة الخبز، وتزاحم الناس على ابواب الأفران[٤] وكان السبب في هذا الارتفاع هو الأمر الذي أصدره السلطان «الناصر» طمعا في تحقيق الأرباح، حيث كان يعتقد أن كل ألف ستأتي له بالف أخرى، وذلك حتى يعوض، مالحقه من خسارة جراء قيامه بشراء نعالاً لأجل الخيل، فصار كل رطل حديد، بأثني عشر درهماً، فاعتبر هذا غبن، وذلك لأن النحاس، وهو الفلوس المتعامل بها، الرطل بستة دراهم وكان عنده عشرة آلاف قفة من الفلوس.[٥]

وانخفضت القيمة الشرائية للفلوس، حيث أصبح الفرد يشتري بالدرهم الفضة رغيفاً، ولا يجد ما يكمل به ثمنه، وبسبب اجتماع الفلوس عند السلطان، اعتقد الناس أن الهدف من المناداة عليها لاخراجها، يهدف إلى الزيادة في سعرها لذلك اكتنزها الناس ولم يقوموا باخراجها للتداول بها وذلك طمعاً في تحقيق الربح.[٦]

---

(١) ابن حجر، أنباء الغمر جـ٨، ص ٤١/٤٢.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢١١.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ٩١.

(٤) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ٢، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٥) المقريزي، السلوك، جـ٤، قسم ١، ص ١٣٤، ابن حجر، انباء الغمر جـ٦، ص ٢٢٩، جـ٧، ص ١٧.

(٦) ابن حجر، انباء الغمر، جـ٨، ص ٧٤.

وضربت أيضاً دراهم جديدة، سميت بالخالصة، زنة الدينار ثلاثين درهماً، وأبطلت الدراهم النقرة، وكان يبلغ كل درهم العشر فضة، والتسعة أعشار الأخرى نحاس.[1]

ولقد عاني الناس كثيراً، بسبب إنخفاض أسعار النقود وتغيرها، وثبات أسعار المبيعات، والأجور عن الأعمال[2] وأصبحت البضائع تباع بسعرين، سعربالفضة، وأخر بالفلوس مما أدى إلي إغلاق الاسواق وحصول الضرر للناس.[3] وفي سلطنة قانصوه الغوري، كان قد قُرر على دار الضرب مالاً له صورة في كل شهر. وكانوا يقومون بصنع الفضة، والنحاس والرصاص جياراً نياراً.[4]

ولم يظهر في هذه الفترة أي دور لناظر دار الضرب، الذي يتحدث في امر النقود، ويحفظها من الغش ومراقبة العاملين في دور الضرب.[5] ولعب الصيارفه دَوراً كبيراً في فساد النقود حيث كان أكثرهم يخلطون أموال الناس مع بعضها البعض ويقومون ببيع احد النقدين بالاخر.[6]

وأخذت جماعة على عاتقها، إفساد الفلوس، حيث يقومون بشراء النحاس المكسر، كل رطل بدرهمين، ويقصونه فلوساً خفيفة بحيث تبلغ عشرين درهماً، ويفعلون بالرصاص كذلك.[7]

ونتيجة لإنعدام الذهب والفضة، وسوء الأوضاع، عادت البلاد وخاصة الوجه القبلي إلى نظام المقايضة «فمن شدة فقر أهله، وسوء حالهم، لايتابيعون الا بالغلال لعدم الذهب والفضة، بعدما كانوا في الغني والسعة في غاية.[8]

---

(1) السيوطي، حُسن المحاضرة، جـ ٢، ص ٣٠٨.

(2) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ١، ص ٣٦٥، ٣٦٨.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ٤، ص ٣٢٧.

(4) ابن أجا، العراك بين المماليك والاتراك، ص ٢١٣.

(5) ابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٦١.

(6) ابن طولون، نقد الطالب، ص ١٨٦.

(7) السخاوي، الذيل التام، ص٧. للمزيد راجع، الطباخي، اعلام النبلاء جـ ٣، ص ٢٨

(8) المقريزي، السلوك، جـ ٤، قسم ١، ص ٥٠٧.

وارتبط نقص الذهب والفضة، بأسعار السلع الغذائية، حيث كانت ظاهرة الاكتناز، واضحة إذ كان الناس يمتنعون عن إخراج الذهب والتعامل به أثناء إرتفاع سعره، وكان قيام الناس باستخدام الذهب في التطريز، وصياغة الحلي أن أدى ذلك إلى نقص معدن الذهب، وقلة دراهم الفضة بسبب صهرها، واستخدامها في صناعة الحلي والسروج والانية بالإضافة إلى عدم وصول معدن الفضة من بلاد الفرنجة إلى مصر[1] وكان للمجاعات ايضاً أثرٌ في انهيار النظام النقدي، لحساب الدينار إلى الدرهم، بسبب الأزمة الاقتصادية، التي تعرضت لها البلاد، نتيجة إنخفاض مياه النيل، فأصبحت الفلوس هي النقد المتداول والتي يدفع بها أسعار السلع كلها[2] فقد كانت الأسعار تقدر بالدرهم، ولكن الدفع يتم بالفلوس، وكان هذا في سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) أما إرتفاع سعر الذهب فكان سببه الشدة التي تعرضت لها مصر في سنة (٨٠٢هـ/١٣٩٩م) بسبب إنخفاض النيل، وتوقفه عن الزيادة، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار، ارتفاعاً كبيراً، كما يرجع سبب ندرة معدن الذهب، إلى الهجرات الخارجية التي تعرضت لها مصر من أهالي الشام الذين تركوا اولادهم واموالهم، هرباً من تمرلنك.

وهكذا نلاحظ أن المجاعات كانت سبباً في انخفاض أو ارتفاع قيمة العملة وكذلك كان الغش والتزييف والاكتناز والرغبة في تحقيق الارباح، يؤدي إلى ارتفاع الأسعار، وانخفاض القيمة الشرائية للنقود، كل هذا الأمر أدى إلى كساد إقتصادي، وارتفاع هائل في الأسعار، واغلاق للاسواق والحوانيت، وتعطل أحوال الناس. بسبب هذا الأمر.

هـ- محاولات التصدي للمجاعات

شكلت المجاعات في العصر المملوكي، عبئاً ثقيلاً على الدولة، وكان على أولي الأمر، التفكير في علاج هذه الأحوال، لما لها من آثار سلبية على الحياة الاجتماعية والإقتصادية في البلاد، وقد لجأ هؤلاء إلى العديد من الوسائل في محاولة لحل هذه المشاكل، وفي بداية الأحداث، كانت الحلول التي يقترحونها، لحل الأزمات عملية

---

(١) نبراوي، اسعار السلع الغذائية، ص ٤٤.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٣.

وجذرية، فيهتمون باستصلاح الأراضي الزراعية، وحفر الخلجان، ويذهبون مع جيوشهم للقيام بمثل تلك الأعمال.(١) وهذا إجراء سليم لانه يعمل على حل المشكلة، ولكنهم فيما بعد أخذوا يلجاوؤن إلى طرق أخرى، تمثلت في الأكثار من الدعاء، ليخلصهم من العذاب الذي هم فيه.

وكثيراً مالجأ السلاطين إلى جمع الفقراء وتفريق المؤن عليهم ففي الغلاء الذي عمّ البلاد في سنة (٦٢٦هـ/١٢٦٣م) أمر السلطان الظاهر بيبرس- باجراء عملية إحصاء للفقراء، حيث بلغوا الألوف، فأخذا ألفاً منهم ووزع الباقي على النواب، ووزع على الاجناد بعضاً منهم، وكان يقول «والله لو كانت عندي غلة تكفي هذا العالم لفرقتها.(٢) وكان قد أمر باعطاء الفقراء ما يكفيهم لمدة أشهر- ووزع الباقي منهم على التجار والاغنياء، ووزعت الأخبار على الزوايا والمنقطعين فيها.(٣)

وفي المجاعة الكبرى التي حدثت سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) إشتد الجوع والموت في زمن العادل كتبغا، وكان قد أمر بتفرقة الفقراء على أصحاب الأموال والأغنياء من أمراء وتجار وغيرهم.(٤) وفي سنة (٧٧٦هـ/١٣٧٤م) أمر السلطان نائبه بتفريق الفقراء على أصحاب الأموال، ومنع الحرافيش من الطلب وكان السجن والتعذيب جرّاء من يخالف.(٥)

وفي سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٥م) عانى الناس من جراء الجوع، ووقع الغلاء، ولجأ السلطان إلى عمل الطعام للفقراء، وكانت أعدادهم هائلة، والذين لا يستطيعون أن يحصولوا على الطعام كانوا يوزعون عليهم الدراهم [درهم ونصف لكل واحدٍ] وكانت الأسعار قد إرتفعت بسبب قلة الغلال.(٦)

---

(١) ماجد، عبد المنعم، طومان باي، (د.ت) ص ٩٠.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٥٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٤) ابن الفرات، تاريخ، جـ٨، ص ٢٠٠.

(٥) ابن العراقي، الذيل على العبر في خبر من عبر، جـ٢، ص ٣٧٤.

(٦) ابن حجر، انباء الغمر، جـ ٣، ص ٢٨٢، ابن الفرات، جـ ٢، مج ٩، ص ٤٣٦، ابن قاضي شبه، تاريخ، جـ ٣، ص ٥٧٦، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ١، ص ٤٢٦.

وكان الأغنياء والموسرين يساهمون أيضا في التخفيف من الأزمة، ففي سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) قام «سعد الدين ابن غراب» عندما إشتد الغلاء، وفشا الموت، باطعام الفقراء وتكفين الأموات من ماله الخاص.[1] وكذلك قام الظاهر برقوق سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م) بعملية تفريق للخبز والاموال على الناس، ووزع على الفقراء والفقهاء الأموال، والغى كثيراً من المكوس والضرائب، وذلك من أجل التخفيف عن الناس.[2]

وبقي السلاطين يقومون بعملية التوزيع في فترات الغلاء المختلفة ويكثرون من الصدقات، ففي سنة (٨٢٩هـ/١٤٢٥م) جمع السلطان الفقراء ووزع عليهم الخبز طيلة أيام الغلاء.[3]

وعندما كانت تصل المراكب المحملة بالقمح ، يكون هذا بداية للخلاص، فيتم توزيع المؤن على الناس[4] واهتم الأتابكي يلبغا بالناس. فقد كان يقوم بتوزيع المؤن عليهم من المخازن وشمل هذا إلى جانب الفقراء أهل العلم، وكافة الناس.[5]

وعندما كان يهل شهر رمضان والناس في ضيق يعمد السلطان إلى الاكثار من الصدقات، ويوزع الدنانير، والدراهم على الفقراء والمساكين،[6] الذين تتحسن أحوالهم بعض الشيء نتيجة لهذا الأمر.

وفي الشام إشتد الجوع في سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) مما أدى إلى ارتفاع كبير في الأسعار، فاجتمع الفقراء في ميدان المدينة، وقام النائب بتوزيعهم على الموسرين من تجار وأمراء وقضاه، مما أدى إلى قلة عدد السائلين في الطرقات، وخف طلبهم وصياحهم.[7] وكان الملوك والسلاطين يمنعون الفقراء من السؤال، ويقدمون لهم ما

---

(١) السخاوي، الذيل التام، ص ٤٣١.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ ٣، قسم ٣، ص ٩٤٥.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، قسم ٢، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٤) ابن حجر، أنباء الغمر جـ ٧، ص ٢٠٤.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ ١، قسم ٢، ص ٧٠.

(٦) المقريزي، السلوك، جـ ٣، قسم ٢، ص ٨٥٧، الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ١، ص ٤٢٨.

(٧) ابن حجر، أنباء الغمر، جـ ٥، ص ٢٩٧.

يكفيهم من خبز وزيت وطعام.[1]

وقد كانت الشون والأهراء السلطانية غالباً ما تكون مليئة بالمؤن والغلال، ولجأ السلاطين والأمراء إلى فتح هذه الشون والبيع منها في أيام المحن، ففي سنة (٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م) وعندما إشتد الغلاء، ومات الناس جوعاً، قام السلطان بفتح عدة مخازن، وتم البيع منها، حيث بيع القمح بخمسة أشرفيات كل أردب، وقام المحتسب بضرب من كان يمتنع عن البيع.[2]

وأخذ ينظر أيضاً في مخازن الأمراء والسماسرة، وكتب عليهم إشهادات، بأن لا تُفتح أي شونه الا بعد ان يتم إستئذانه، وأخذ يُخرج في كل يوم ما يوجد في المخازن على قدر ما هو متوفر فيها، ولم يتمكن أحد من التصرف بالغلال التي يملك الا بإذن من المحتسب [3] وإذا ما خُزنت غلة عند أخرين، ولا يقوم ببيعها، فإنها تنهب وكان كثير من الجند، يخزنون الغلة، ويبيعونها[4] بالويبه*.

ولجأ سلاطين المماليك إلى إتباع إجراء أخر تمثل في صلاة الأستسقاء والصيام، وذلك للحد من أزمة المجاعة، فعندما ترتفع الأسعار. ويحل الغلاء، كان ينادى في القاهرة، بالتوقف عن عمل المعاصي، والطلب إلى الناس، أن يصوموا يوماً، ويفطروا أخر، وذلك تقربا لله تعالى[5] ويمكن تفسير الهدف من الدعوة إلى الصيام. بأنه دعوة للمساهمة في معالجة الأزمة الاقتصادية والتخفيف من المجاعة، وذلك عن طريق تعويد الناس، التقشف ، لأن الصوم، سيؤدي إلى توفير الخبز في الأسواق، ولايقومون، بالتهافت عليه، طوال مدة صومهم، كما سيؤدي إلى التقليل من استهلاك المواد الغذائية، قدر الأمكان وهو علاج أخلاقي، وذلك لأن الصوم يمنع

---

(١) الصيرفي، نزهة النفوس، جـ ٣، ص ٤٠٩.

(٢) المقريزي، السلوك، جـ ٢، قسم ٢، ص ٣٩٥، ٣٩٦.

(٣) المقريزي، السلوك،جـ ٤، قسم ١، ص ٣٤٤.

(٤) اليوسفي، نزهة الناظر، ص ٢٩٩.

* الويبة: مكيال للحبوب سعته سدس الأردب وتستعمل في مصر،البقلي،محمد،التعريف بمصطلحات صبح الأعشى،ص ٣٦٢.

(٥) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، جـ ١، ص ٢٩١.

الانسان القيام بالمنكرات.[1]

وكانت صلاة الاستسقاء، إجراءً أخر، يقومون به، وذلك طلباً للغيث من الله تعالى، فعندما أجدبت دمشق في سنة (٧٠٥هـ/١٣٠٥م) خرج أهلها للإستسقاء، فسقوا [2] وفي سنة (٧٩٩هـ/١٣٩٦م) أمر القاضي الناس بالخروج إلى الاستسقاء والصيام لمدة ثلاثة أيام فخرج الناس إلى الصحراء للدعاء ومُنع الطباخون من عمل الطعام[3] وكان الخليفة يخرج بصحبة القضاة إلى الصحراء، ويقومون بالصلاة والدعاء والخضوع والخشوع.[4] وكان الدعاء يشمل إلى جانب إغاثة الناس بالمطر، الدعاء لله تعالى برفع الطاعون والأمراض عن البلاد والعباد، ففي سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) خرج الخليفة والسلطان والقضاة والعلماء والزهاد، تتقدمهم الأعلام والمصاحف وأمامهم الأغنام والأبقار، ومعهم الناس، بما فيهم اليهود والنصارى، حاملين كتبهم المقدسة معهم إلى الصحراء ودعود تعالى برفع الطاعون وقرّب السلطان القرابين والتي فُرقت على الفقراء والمساكين وفُرق الخبز على الناس.[5]

وكان الاستسقاء والصيام والدعاء، تنتظم إبان المحن، لأن الناس، يعتقدون أن الله سيرفع عنهم البلاء والغلاء.

ومن الإجراءات التي نستطيع أن نعتبرها إيجابية قيام المسؤلين بشراء الغلال وجلبها من الخارج وذلك من أجل توفيرها للناس، وبأسعار معتدلة للحد من هذه المشكلة، ففي غلاء سنة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) كتب السلطان إلى غزة والكرك ودمشق بجلب الغلال إلى مصر، وأن لا تُترك مخزونة في تلك البلاد فقدمت من الشام أربعة آلاف غرارة من القمح واحمال كثيرة من الصعيد والشرقية والغربية، وكان هذا إيذاناً بانخفاض الأسعار.[6]

---

(١) ابو زيد، سهام، الحسبه في مصر الاسلامية، ص ١٨٠.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ١٧١.

(٣) ابن قاضي شهبه، تاريخ، جـ٣، ص ٦١١.

(٤) المقريزي، السلوك، جـ٣، قسم ٢، ص ٨٥٦، السخاوي، التبر المسبوك، ص ٣١١.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٦.

(٦) المقريزي، السلوك، جـ٢، قسم ٢، ص ٣٩٤، ٣٩٦.

وكانت المراكب تأتي محملة بالغلال ففي سنة (٨١٩هـ/ ١٤١٦م) وصلت الغلال، فأمر السلطان، أن يُباع كل أردب منه إلى الطحانين، بمبلغ ستمائة درهم، وقبض منهم الثمن بالذهب.(١)

وكانت الكتب السلطانية تصل إلى ولاة الأعمال، بضرورة إن يقوموا بأنفسهم بجمع ما في النواحي من غلال، ولا يدعوا فيها شيئاً مخزوناً، وأن يحضر أصحاب الغلال إلى مصر لأخذ ثمنه، ونودي في مصر والقاهرة «أن من كان عنده غلة ولا يبعها تنهب».(٢)

وعندما كان يتزايد الغلاء، يمنع من سجن أحد على دين، وذلك تخفيفاً عن الناس بسبب ما يحل بهم من الغلاء ووقوف الحال.(٣)

ومن الإجراءات الأخرى التي أُتخذت إسلوب التسعير، ونظام التسعير، تلجأ اليه الدول عادة، للتخفيف من حدة الأزمة الاقتصادية هذا وقد إختلف الفقهاء، حول مدى مشروعية التسعير، حيث حرمه البعض في جميع الأوقات، وأجازه أخرون في أوقات الغلاء بشرط أن تكون البضائع من إنتاج البلاد، وليست من الواردات.(٤)

وكان التسعير، يتم بتحديد سعر البضاعة ففي سنة (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) أمر السلطان بالتسعير نتيجة للغلاء الذي أصاب البلاد، وذلك من أجل التخفيف عن الناس، وأمر بفتح الأهراء والشون السلطانية وأن يباع منها في كل يوم خمسمائة أردب.(٥)

---

(١) المصدر نفسه، جـ٤، قسم ١، ص ٣٤٤.

(٢) المصدر نفسه، جـ٢، قسم ٢، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٣) ابن الشحنه حسين بن محمد بن محمد (٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م)، البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر محمد بن قاتيباي تحقيق عمر عبد السلام التدمري، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٣، ص ٥٢.

(٤) قاسم عبده، أسواق مصر، ص ١٣٨.

(٥) إبن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص ١٨٨.

وفي سنة (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) جُمع كل السماسرة والطحانين، وامرهم المحتسب، ببيع رطل الخبز بدرهم، والرطل والثلث كذلك، مما أدى إلى تذمر واسع بين التجار.[1]

واستمرت عملية التسعير، ففي سنة (٨٧٤هـ/١٤٦٩م) وصل سعر القمح إلى ألف وثلاثمائة درهم للأردب، وعندما رفع الأمر إلى السلطان، أمر بتسعير الأردب، بألف درهم، وباع من مخازنه بمثل هذا السعر،[2] ولم يقتصر التسعير على غلةٍ دون أخرى بل شمل جميع البضائع.[3]

وسعّر الخبز في دمشق أيضاً، وأصبح يباع كل رطلين، بثلاث دراهم[4] وبعد فهذه الإجراءات التي إتبعها سلاطين المماليك، كانت محاولات تهدف إلى التخفيف من حدة المجاعة على العامة، الذين عانوا كثيراً من آثارها المدّمرة.

---

(١) إبن صصرى، الدّرة المضئية، ص ١٢٨.

(٢) الصيرفي، أنباء الهصر، ص ١٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٧٧.

(٤) ابن قاضي شهبه، تاريخ، جـ ٣، ص ٢٤١.

الخاتمة

-وبعد- فقد كان ذلك دراسةً عن المجاعات التي حدثت في العصر المملوكي- عواملها- ونتائجها على صعيد الدولة والمجتمع.

فقد تبين من خلال هذه الدراسة أن هناك عدّة عوامل، كانت وراء أحداث المجاعات في العصر المملوكي، منها ماهو طبيعي، ومنها ما هو بشري وأن العوامل الطبيعية وإن كانت سبباً مباشراً في كثير من الأحيان في حدوث المجاعة، فلم تكن هي السبب الوحيد، فقد كان للعوامل البشريه من فسادٍ في الإدارة، والاحتكار التجاري، والرغبة في تحقيق الأرباح، وفساد العربان، وفتن المماليك فيما بينهم ومن ثم الأخطار الخارجية التي تعرضت لها البلاد، من العوامل المهمة التي أدت الى إزدياد الأوضاع سوءاً في المنطقة، وجعلها عرُضةٍ لشللٍ كامل أصاب بُنية المجتمع.

وقد ترتب على تكرار حدوث المجاعات، نتائج إجتماعية وثقافية وإقتصادية مهمة، فقد أدت المجاعات الى تغير في صورة الحياة في المجتمع، بسبب موت الكثير من الناس، من الجوع واضمحلال الريف وإنتشار الفقر، وقلة عدد القرى، وأندثرت العديد من المناطق والتي كانت مأهولة بالسكان في سنوات الكوارث والمحن.

وتزايدت نتيجة لهذه المجاعات، أعداد الفقراء في البلاد، مما أدى الى حدوث فوضى طبقية، وتلاشت الطبقة الوسطى، فازداد الأغنياء غنى، والفقراء فقراً، وكان لاحتكار كبار رجال الدولة والتجار على الغلال اثرٌ في إرتفاع الأسعار، ومن ثم عدم حصول الناس عليها ومن النتائج الاجتماعية الاخرى، التي إنعكس أثرها على المجتمع، نتيجة لتوالي سنوات المجاعة، إزدياد أعداد الرقيق على الأحرار، بسبب قيام الأهالي ببيع أبنائهم.

ومن النتائج الأخرى التي أفرزتها المجاعات، عدم الاهتمام بالتعليم والحياة الثقافية بشكل عام، ودَمار وخراب العديد من المركز لتعليمه وضياع هيبة العلماء والفقهاء، وتحكم المماليك الأجلاب بالفقهاء وسوء أحوالهم.

أما النتائج الاقتصادية للمجاعات، فقد تعرض الاقتصاد الى نكسه قوية، تمثل في إرتفاع حاد في أسعار المواد الغذائية، وعدم مقدرة العامة على الحصول على الطعام، كما أستشرى الغش في عمليات البيع والشراء، وتدنت نوعية وجودة الطعام المقدم للناس كما إرتفعت أسعار الماء والأدوية.

كما تأثر الانتاج الحيواني، بسبب نفوق الحيوانات، مما أدى الى قلة وجودها في الأسواق، وعند الفلاحين، حيث أدى ذلك الى عدم حراثة الأراضي وزراعتها، وكان لإصابتها بالأمراض، أن امتنع الناس عن أكل لحومها خوفاً من إنتقال الأمراض اليهم.

وتعرضت السكة المملوكية الى الخراب نتيجةً لتوالي المجاعات، مما أدى الى انخفاض القيمة الشرائية للعملة، وحلّ معدن الفضة محل الذهب واصبح التعامل بالدراهم والفلوس، وأُستخدم الذهب في صناعة الحُليّ والأنية مما أدى الى عدم توفر النقود في أيدي العامة مما أدى الى لجوء الناس الى المقايضة فيما بينهم.

ولجأ سلاطين المماليك الى محاولة معالجة الأضرار الناتجة عن هذه المجاعات، وقد كانت هذه المحاولات غير مجدية لحل الأزمة من جذورها، فقد إقتصرت محاولاتهم على الدعاء لله، والصيام، والاستسقاء وجمع الفقراء والتصدق عليهم، وتوزيع المؤن والطعام، وفي اسلوب جديد يهدف لكبح جماح إرتفاع الأسعار قيامهم بتسعير المواد الغذئية والمناداة بعدم بيعها باعلى من السعر الرسمي المحدد من قبل الدولة، والتشهير ومعاقبة من يخالف هذه الإجراءات.

وأخيراً، فقد إنعكست هذه الأحداث سلباً على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الدولة المملوكية، وقضت على الإزدهار الذي تمتعت به دولة المماليك، والرخاء العظيم والذي يدّل عليه تلك الآثار المملوكية والتي مازالت شاهداً على عظمة الحياة في تلك الفترة، وجعلت الدولة ترزح تحت أعباء إقتصادية كبيرة، وإنعكس ذلك على الدولة وجهازها الإداري والعسكري فاصيبت بالضعف، ولم تعد قادرة على التصدي للأخطار المحيطة بها، من الداخل والخارج مما أدى الى إنهيارها بعد ذلك تحت سنابك خيول العثمانين.

المصادر والمراجع

المصادر العربية المخطوطة

ابن حبيب (بدر الدين الحسن بن عمُر الحلبي).

- **دّرة الأسلاك في دولة الاتراك**، مخطوط مصّور بمركز الوثائق والمخطوطات، بالجامعة الأردنية، صورة من مكتبة بودليان اكسفورد، رقم الشريط ٥٣٩، ج٢، رقم شريط ٥٣٩.

العجلوني، الجراحي

- **تحريك السلسلة فيما يتعلق بالزلزلة**، شريط ميكروفلم، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم ١٩.

العمادي الحنبلي، حامد بن علي.

- **رسالة الحوقلة في الزلزلة**، مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الأردنية، ميكروفلم، رقم ٧٥، عن نسخة برتسون، رقم ٢٠٨٥.

الصديقي البكري، أبو السرور بن محمد بن علي بن عبد الرحمن بن احمد بن محمد.

- **قطف الأزهار من الخطط والأثار**، مخطوط مصّور بمركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم الشريط ٢٣.

- **الأنصاري**، ابو يحيى زكريا بن فهد بن أحمد، تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين، صورة عن مخطوط جامعة برنتسون، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، في الجامعة الأردنية، رقم الشريط ٢٤.

المصادر العربية المطبوعة

القرآن الكريم

ابن آجا، محمد بن محمود الحلبي.

- **العراك بين المماليك والعثمانين**، الاتراك (مع رحلة الامير يشبك بن مهري الدوادار)، تحقيق أحمد دهمان، ط١، دار الفكر دمشق، ١٩٨٦.

الأسدي، محمد بن خليل.

- **التيسير والاعتبار والتحرير والإختبار**، فيما يجب من حُسن التدبير والتصرف والاختبار، تحقيق، عبد القادر محمد طمليات، دار الفكر العربي، ١٩٦٧.

ابن إياس، محمد بن أحمد.

- **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ٥ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى زياده الهيئه المصرية، العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٢- ١٩٨٤.

ابن أيبك، أبو بكر عبد الله.

- **كنز الدرر وجامع الغرر**، الدّر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج ٩، تحقيق، هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التاليف والنشر، نشر قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار في القاهرة، ١٩٦٠.

- الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق، أولرخ هارمان، ج٨، القاهرة، ١٩٧١.

البصروي، علاء الدين علي بن يوسف أحمد الدمشقي.

- **تاريخ البصروي**، صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في العصر المملوكي، تحقيق، اكرم حسن العلبي، ط ١، دار المأمون للتراث دمشق، ١٩٨٨.

التجيبي السبتي، القاسم بن يوسف.

- **مستفاد الرحلة والاغتراب**، تحقيق عبد الحي منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٣٥.

ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف.

- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، قدّم له وعلّق عليه محمد حسن شمس الدين، ١٦ جزء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

- **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، جزءان تحقيق محمد كمال عز الدين عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٩٠.

ابن جُبير، أبو الحسن محمد.

- **الرحلة**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤.

ابن الجيعان، بدر الدين أبو البقاء محمد بن شاكر.

- **التحفة السنية باسماء البلاد المصرية**، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٤.

ابن الحاج، ابو عبد الله محمد العبدري الفاسي.

- **المدخل الى الشرع الشريف**، ٤ أجزاء، دار الكتاب، بيروت ط٢، ١٩٧٢.

ابن حبيب، الحسن بن عمربن الحسن بن عمُر.

- **تذكرة النبية في أيام المنصور وبنيه**، مع نشر وتحقيق وثائق وقف السلطان قلاوون، حققه ووضع حواشيه، محمد محمد أمين، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب، القاهرة ١٩٧٦.

ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل، أحمد بن احمد بن علي.

- **أنباء الغمر بإبناء العُمر في التاريخ**، ط١، دار الكتب العلميه، بيروت ١٩٧٥.

- **الدرر الكامنه في أعيان المئة الثامنة**، تحقيق محمد سيد جاد الحق ٥ أجزاء، دار الكتب الحديثة، ط٢، ١٩٦٦، مطبعة المدني بالعباسية.

ابن خلدون، عبد الرحمن محمد.

- **العبر وديوان المبتدء والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ١٤ جزء، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨١.

ابن دقمان، صارم الدين ابراهيم.

- **الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين**، جزاءن، تحقيق محمد كمال الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥.

الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان.

- **العبر في خبر من غبر**، ٤ أجزاء، تحقيق، ابو هاجر محمد السعيد البسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥.

ابن سباط، حمزه بن أحمد بن عمرة .

- **صدق الأخبار المسمى بتاريخ ابن ُسباط**، تحقيق، عبد السلام التدمري، جروس برس، طرابلس، ط ١، ١٩٩٣.

السُبكي، تاج الدين عبد الوهاب .

- **مُعيد النعم ومُبيد النقم**، تحقيق، محمد علي النجار، أبو زيد شلبي، ط ٢، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٩٣.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن.

- **الذيل التام على دول الإسلام للذهبي**، حققه حسن اسماعيل مروة، تقديم محمد الأرناؤوط – مكتبة دار العروبة، دار ابن العماد للنشر والتوزيع، الكويت، بيروت، ١٩٩٢.

- **التبر المسبوك في ذيل السلوك**، مكتبة الكليات الأزهرية (د.ت).

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن.

- **حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، جزءان، مطبعة الموسوعات بشارع باب الخلف بمصر، لصاحبها اسماعيل عبد الحافظ المجيز، بالمحاكم الأهلية، (د.ت).

- **كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة**، تحقيق محمد كمال عز الدين عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

ابو شامة، شهاب الدين المقدسي.

- **الذيل على الروضتين**، تراجم رجال القرنين السادس والسابع، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

ابن الشُحنه، حسين بن محمد بن محمد.

- **البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر**، محمد بن قاتيباي، تحقيق، عمر عبد السلام التدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤.

الشوكاني، محمد بن علي.

- **البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع**، جزءان دار المعرفة، بيروت لبنان ١٩٨٠.

شيخ الربوه، شمس الدين أبي عبد الله أبي طالب الأنصاري.

- **نخبة الدهرفي عجائب البر والبحر**، بطرسبرغ، المطبعة الأكاديمية، ١٨٦٥هـ

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك.

- **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب**، تحقيق، احسان بن سعيد، زهير حمدان، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢.

- **الغيث المُسجم في شرح لامية العجم**، مجلدان دار الكتب العلمية بيروت (د.ط) (د.ت).

الصيرفي، علي بن داوود الخطيب الجوهري.

- **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**، تحقيق حسن حبشي، ٣ أجزاء، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠- ١٩٧٣.

- انباء البصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي، ١٩٧٠.

ابن صصرى، محمد بن محمد.

- **الدّره المضنية في الدولة الظاهرية**، عني بنشره وتحقيقه وليم بيرنر، جامعة كاليفورنيا، الولايات المتحدة، ١٩٦٣.

ابن طولون الصالحي، محمد بن علي احمد الحنفي.

- **إعلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الشام الكبرى**، تحقيق محمداحمد دهمان، دار الفكر، ط ٢، ١٩٨٤.

- **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان تاريخ مصر والشام**، جزءان، تحقيق محمد مصطفى، دار احياء الكتب العلمية، القاهرة، ط١، ١٩٦٢، ط٢، ١٩٦٤.

- **نقد الطالب لزغل المناصب**، حققه محمد أحمد دهمان وخالد محمد دهمان، راجعه، نزار أباضه، دار الفكر، بيروت ١٩٩٢.

ابن عبد الظاهر، القاضي محي الدين.

- **الروض الزاهر في سيرةالملك الظاهر**، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط ١، ١٩٧٦.

ابن العراقي، ولي الدين أبي زرعه احمد بن عبد الرحيم.

- **الذيل على العبر في خبر من غبر**، ٣ أجزاء، تحقيق، صالح مهدي عباس مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١ (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

العليمي الحنبلي، الحافظ ابو الفرج عبد الرحمن بن احمد بن رجب.

- **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، جزءان، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣.

ابن العماد الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي .

- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق لجنة أحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ٨ أجزاء (د.ت).

العُمري، شهاب الدين ابو العباس احمد .

- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**(دولة المماليك الأولى) دراسة وتحقيق دوريتا كرافولسكي، الناشر، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، ١٩٨٥.

العيني، بدر الدين .

- **السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي**، تحقيق فهمي محمد شلتوت، مراجعة محمد زيادة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦.

- **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، الأقسام (١-٤) تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل .

- **المختصر في أخبار البشر**، ٤ أجزاء دار البحار بيروت ١٩٦١.

ابن الفرات، ناصرالدين محمد بن عبد الرحيم .

- **تاريخ ابن الفرات**، تحقيق، قسطيطن زريق، نجلاء عز الدين، المطبعة الأمريكاينة، الأجزاء (٧-٨-٩)، بيروت، ١٩٣٨.

الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب الشيرازي.

- **القاموس المحيط**، المؤسسة العربية للطباعة والنشر (د.ت).

ابن قاضي شُهبه، تقي الدين أبو بكر احمد.

- **تاريخ ابن قاضي شُهبه**، جزء ٣، تحقيق عدنان درويش، المعيد العلمي الفرنسي للدراسات العربيه، دمشق ١٩٧٧.

القرشي، محمد بن محمد بن احمد .

- **معالم القُربة في أحكام الحسبه**، نقله وصححه، روبين ليوني، ط ١، دار الفنون، كيمبرج٢، ١٩١٣.

القرماني، ابو العباس محمد بن يوسف بن احمد الدمشقي .

- **أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ**، مكتبة المتنبي، بيروت، ط ١، (د.ت).

القلصادي، ابو الحسن علي.

- **رحلة القلصادي**، تحقيق، محمد أبو الأجفان الشركة التونسية للتوزيع (د.ط) (د.ت).

القلقشندي، احمد بن علي .

- **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، ٣ أجزاء، تحقيق عبد الستار أحمد درّاج، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)..

الكُتبي، محمد بن احمد بن شاكر.

- **عيون التواريخ**، تحقيق الجزء العشرين، فيصل السامر نبيله عبد المنعم، داودد ، دار الرشيد، ١٩٨٠، ج ٢١ تحقيق نبيله عبد المنعم داوود، وفيصل السامر، من منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية، ١٩٨٤م.

ابن كثير، عماد الدين اسماعيل.

- **البداية والنهاية**، ١٤ جزء، تحقيق احمد ابو ملحم، وعلي نجيب يحيى وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

ابن كنان، محمد بن عيسى.

- **حدائق الياسمين بذكر قوانين الخلفاء والسلاطين**، تحقيق عباس صالح، دار النفائس، ط٢، ١٩٩٢.

- **المروج السندسية في تلخيص تاريخ الصالحيه**، تحقيق محمد احمد دهمان، د.ط، دمشق ١٩٧٤.

المقريزي، تقي الدين احمد بن علي .

- **السلوك لمعرفة دول المملوك**، ٤ أجزاء، الجزء الأول والثاني، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، والترجمة (١٩٣٤-١٩٤٢)، والجزء الثالث والرابع تحقيق، عبد الفتاح عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب (١٩٧١/١٩٧٣).

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، يختص ذلك بذكر إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة، وما يتعلق بها**، مطبعة بولاق، دار التحرير للطبع والنشر، ١٢٧٠هـ.

- **المقفى الكبير**، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي ط ١، ١٩٩١.

- **درر العقود الفريده في تراجم الأعيان المفيده**، دراسة وتحقيق محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٢.

- **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، مؤسسة ناصر للثقافة (د.ت).

- **(النقود الإسلامية) والمسمارة، شذور العقود في ذكر النقود**، تحقيق: محمد السيد علي، المكتبة الحيدرية، النجف ط ٥، ١٩٦٧.

ابن مماتي، الأسعد.

- **قوانين الدواوين**، تحقيق، عزيز سوريال عطيه، مطبعة مصر، ١٩٤٣.

المنصوري، بيبرس، عبد الله الدوادار، (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م).

- **التحفه الملوكية في الدولة التركية**، تحقيق عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، القاهرة، ١٩٨٧م.

- **مُختار الأخبار**، تاريخ الدولة الأيوبيه ودولة المماليك البحرية، حتى سنة (٧٠٢هـ/ ١٣٠١م) تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط١، الدار المصرية اللبنانية للكتاب بيروت (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

النعيمي، عبد القادر بن محمد .

- **الدارس في تاريخ المدارس**، جزءان، تحقيق جعفر الحسن، ط الترجي، دمشق ١٩٤٨.

النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب .

- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الأجزاء من (١-٢٢) نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة (د.ت) ج٣٠، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٩٠م، ج٣١ ، تحقيق الباز العربي مراجعة، عبد الهادي الأهواني، الهيئة المصرية العامة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢ .

النويري، محمد بن قاسم الأسكندراني.

- **الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقتضية في وقعه الاسكندرية**، تحقيق، عزيز سوريال عطيه، ٦ أجزاء دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٧٠.

ابن الوردي،زين الدين محمد بن مظفر .

- **تتمة المختصر في اخبار البشر**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤١٧هـ/١٩٩٦).

اليافعي، عفيف الدين عبد الله بن أسعد.

- **مرآة الجنان وعبرة اليقضان في ما يُعتبر من حوادث الزمان**، ٤ أجزاء منشوارت، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ط٢، ١٩٩٧.

ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله.

- **معجم البلدان**، دار صادر، ٥ أجزاء، بيروت.

اليونيني، خطيب الدين أبي الفتح اليوسفي البعلبكي .

- **ذيل مرآة الزمان**، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٥٤.

اليوسفي، محمد بن يحي .

- **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، تحقيق، احمد حُطيط، بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٦.

المرجع العربية الحديثة

- أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ط ١، دار النهضة العربية مصر، ١٩٨٠.

- بدران، عبد القادر، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، منشورات المكتب الإسلامي دمشق ١٩٦٠.

- البقلي، محمد، التعريف بمصطلحات صُبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.

- الحصني، محمد أديب، منتخبات التواريخ لدمشق، المطبعة الحديثة دمشق، ١٩٣٤.

- حميد، عبد العزيز، وآخرون، الفنون الزخرفية الإسلامية (د.ت).

- الريحاوي، عبد القادر، العمارةالعربية الاسلامية، خصائصها وآثارها في سوريا، ١٩٧٩.

- زقلمة، أنور، المماليك في مصر، ط ١، ١٩٩٥.

- زغلول، عبدالحميد سعد، العمارة والفنون في دولة الإسلام، دار المعارف الاسكندرية ١٩٨٦.

- أبو زيد، سهام، الحسبة في مصر الاسلامية، الهيئة المصريةالعامة للكتاب، ١٩٨٦.

- سليم، محمد رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، دار الحمامي للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦٥.

- الشامي، عبد العال، مُدن مصر وقُراها عند ياقوت الحموي، ط ١٩٨١.

- الصاوي، أحمد السيد، مجاعات مصر الفاطمية، دار التضامن للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ١٩٨٨.

- ضومط، أنطون، الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٠.

- الطّباخي، محمد راغب، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، دار القلم العربي، حلب ٧ أجزاء، ط١، ١٩٢٣.

- عاشور، سعيد، مصر والشام في عهد المماليك التاريخ السياسي والعسكري، دار النهضة العربية القاهرة (د.ت).

- عاصم، محمد زرق، مراكز الصناعة في العالم الاسلامي (د.ت).

- عامر، نجيب ناصر، الحياة الزراعية في مصر، زمن الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤هـ/٩٢٣هـ) (١٣٨٢م/١٥١٧م) رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨.

- العلبي، أكرم، خطط دمشق على مدى الف عام من سنة ٤٠٠هـ إلى ١٤٠٠هـ، لدور القرآن والحديث والمدرس والبيمارستان والجوامع الكبرى، دمشق دار الطباع ١٩٨٩.

- علاّم، نعمت، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية (د.ت).

- عنان، عبد الله، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط، ط دار الكتب، القاهرة ١٩٣١.

- غوانمة، يوسف درويش، الزلازل في بلاد الشام في العصر الإسلامي، وأثرها على المعالم العمرانية، دار الفكر للنشر والتوزيع، د.ط، ١٩٩٠.

- غنيم، عبد الله، الحلقة الدراسية العربية الثالثة للعلوم الزلزالية أسباب الزلازل، واحداثها في التراث العربي، دراسة جغرافية، مرصد الزلازل الجيوفيزياني، جامعة الملك سعود ١٩٨٨.

- قاسم، عبده قاسم، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي (عصر سلاطين المماليك)، دار المعارف الزقازيق، ١٩٧٦.

- قحطاني، راشد بن سعد (أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، الرياض، ط ١، ١٩٩٤.
- ماهر، سعاد، مساجد، مصر وأولياؤها الصالحون، ٤ أجزاء جمهورية مصر العربية وزارة الأوقاف، (د.ت).
- ماجد، عبدالمنعم، طومان باي (د.ت).
- مذكور، ابراهيم، المعجم الوجيز، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، ١٩٧٠.
- نبراوي، رأفت، أسعار السلع الغذائية والجوامك في مصر عصر سلاطين المماليك الجراكسة، ط ١، الرياض، ١٩٩٠.
- نقولا، زيادة، دمشق في عصر المماليك، فرانكلين للطباعة والنشر.

المقالات

- دّراج، احمد، الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصاديه في مصر المملوكية، المجلة التاريخية المصرية، مج ١٤، الهئية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٨.
- صالحية، محمد عيسى، ظاهرة الطرح والرّمي في الاقتصاد المملوكي، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد ٩ العدد ٤، ١٩٩٣.
- عبد الرزاق، أحمد، مشكاة مملوكية باسم الأمير حسين بن حبذربك دراسة تاريخية، المجلة التاريخية المصرية (٢١-٢٢) ١٩٧٤.
- غوانمه، يوسف، الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب بلاد الشام، مجلة دراسات تاريخية، مجلد١٦ العدد ١٣، ١٩٨٣.
- مجلة وحدة الفن الإسلامي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الرياض، عدد ١٤، ١٩٨٧.
- جريدة الدستور، العدد ١٠٨١٧، ١٩٩٧.

المرّاجع المعربّة

- ارنولد، بريجر كريستي، تراث الاسلام في الفنون الفرعية والعمارة والتصوير ترجمة زكي محمد حسن، دمشق، دار الكتاب العربي ١٩٨٤.
- أشتور، الياهو، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، مراجعة أحمد سبانو، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥.
- التطيلي، بنيامين، الرحلة ما بين أعوام (٥٦١هـ/٥٦٩هـ/١١٦٥/١١٧٣م)، رحلة بنيامين، عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، ١٩٤٥.
- فالترهنتس، المكاييل والأوزان وما يعادلها في النظام المتري ترجمة، كامل العسلي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠.
- ديماند، فنون الاسلام، (د.ت)،
- لا بيدوس، ايرا، مدن اسلامية في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي الأهليةللنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧.

المراجعّ الأجنبية :

1- Micheal, W, Doles Black Death in the middle East New, Jersey, 1977.

2- Moshe Sharoun, The Political Role of the Bedouins in palastaine in the sixtenth and sevententh centuries, studies in Islamie History, and civiliziation E.J.Brill, Leiden., 1986.

ملخص باللغة العربية

المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي

(٦٤٨هـ - ٩٢٢هـ) (١٢٥٠م - ١٥١٦م)

اعداد

منال احمد ابراهيم أبو زيتون

قسمت البحث الى ثلاثة فصول ومقدمة وخاتمة،تحدثت في الفصل الأول عن المجاعات التي أصابت كلاً من مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، وبينت تواريخ حدوث هذه المجاعات، والمظاهر المصاحبه لها، كما تحدثت عن العوامل الطبيعية التي كانت أحد الأسباب المهمة التي أدت الى وقوع المجاعات، ومن ثم بينت الأسباب البشرية التي أدت الى حدوثها، وقد كان للعامل البشري، دَورٌ وأثرٌ واضح في وقوع المجاعات.

أما الفصل الثاني، فقد أفردته للحديث عن الآثار الاجتماعية والديمغرافية للمجاعات، فبينت أثرالمجاعة على المظاهر والقيم الاجتماعية، وكيف اثر تكرار هذه الأحداث، على الحياة بصورة عامة في كل من مصر بلاد الشام كما تعرضت الى الآثارالديمغرافية التي ترتبت على تكرار وقوع المجاعات، وكيف أدى ذلك الى تخلل التوزيع الديمغرافي للسكان وبالتالي قلة عدد السكان، ومن ثم تناقص أعداد القرى في الدولةالمملوكية، وتعرضت أيضاً للحديث عن الآثار الثقافية والعلمية للمجاعات، وكيف أدت الى عدم الاهتمام بالحياة العلمية والثقافية، وتحدثت أيضاً عن أحوال العلماء والفقهاء والطلاب في هذه الأحداث.

كما بينت أثر المجاعات على العمارة والفنون في تلك الفترة وكيف دثرت كثيرٌ من الأماكن، واضمحلت العديد من الصناعات.

أما الفصل الثالث فقد خصصته للحديث عن الآثار الاقتصادية للمجاعات، مبنية أثرها في إرتفاع أسعار المواد الغذائية وبالتالي فقدانها من الأسواق، وعدم مقدرة الناس على شرائها، كما بينت أثر المجاعات على المواشي، وكيف أدى تكرار حدوثها الى نفوق أعداد كبيرة منها، وخسارة المزارعين الكبيرة نتيجة لفقدانهم لعنصر مهم من عناصر ثروتهم.

كما أشرت الى أثر المجاعة على السكة المملوكية، وكيف أدت عمليات الغش والتنزيف، الى حدوث التضخم المالي في البلاد وبالتالي إنخفاض القوة الشرائية للدرهم.

وأخيراً تحدثت عن المحاولات التي بُذلت للتصدي لهذه الظاهرة وقد كانت الوسائل التي أتخذت مختلفة، منها ما هو إيجابي، مثل عمليات إستصلاح الأراضي الزراعية، ومنع الاحتكار، وفتح المخازن ومنها ما هو غير ذلك، من صيام ودعاء وإستسقاء.

ABSTRACT

Famines in Egypt and Bilad Al-Sham during the Mamluki period (648-912A)

Prepared by

Manal Abuziton

Supervised by

Prof.M.E. Salheih

This study is divided into 3 chapers, introduction and conclusion. In the first chapter, the researcher deals with the starvation which took place in Egypt and AL- Sham during the Mamluki period, indicated their dates and the phenomena which accompanied them. She also talks about the natural factors which were some of the important reasons that led to starvation. Then she talks about the human reasons of it. Human factor had a role and effect on these starvations.

The second chapter deals with the social and demographhic effects of starvations. The researcher shows the effect of star vation on social values and features and the frequency of these erents on life in general in Egypt and AL-Sham . Also she examines the demographic effects that took place because of frequent starvation and the disruption of demographic distribution of population which led to decreasing their numbers and decreasing the number of villages in the mamluki state. In addition, the researcher talks about the scientific and cultural effects of starvation which took place in the farm of neglectiog cultural and scientific life. This chapter also deals with the conditions of scholars, and students during these events.

The researcher also shows the effect of starvation on architecture and arts then and how mamuy sites and industries deter iorated.

The third chapter talks about the economic effects of star vation, which crystalized in the high prices of food stuff and their disappearance from markets.

This chapter also shows the effect of starvation on herds of cattles and how their frequent incidence led to the death of gueat numbers of them, and how their breeders lost too much because they lost an important element of wealth.

The researcher also talks about the effect of starvation on the mamluki coins. and how falsification and forgery led to financial inflation in the state and the low purchasing power of dirham.

Finaly the researcher talks about the attempts to counter this thing. There were different ways for that. Some are positive such as cultivating lands, forbidding monopoly, openning stores and fasting and asking Allah to take people under his mercy.